الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الأول



الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الأول

" فلينظر الإنسان مم خلق "

قرآن كريم

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الرابع :

الباب الخامس :

صفحة

إهـــداء

إلى الإنسان .. فى كل زمان .. وفى كل مكان ..

رجلاً كان أو امرأة .. شابًا أو شابة .. صبيًا أو صبية .. طفلا أو طفلة ..

الأحمر والأبيض والأصفر والأسود ..

يدين بأى دين سماوى ..

أو يستعبده أى مذهب أرضى ..

يعلم أو يجهل ..

يستخدم عقله ويستهدى بفؤاده ..

أو تستعبده شهواته وتستذله نزواته ..

ينشد الخلود أو يرسف فى قيود الوجود ..

إلى هذا الإنسان ..

نهدى هذا الشعاع من النور ..

ليكشف له عن حقيقته ..

أو حقيقة بدنه .. وروحه .. ونفسه ..

المؤلفان

الجيزة فى ٩ / ١ / ١٩٨١ م

الموافق ٣ ربيع الأول ١٤٠١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) .

(الإنسان آيات ١ - ٣)

قالوا عن الإنسان

– الإنسان حشرة حقيرة ودودة قذرة .

« سارتر »

– الإنسان قرد خلقه الخالق ليتلهى به فى أبديته الطويلة .

« نيتشه »

– الإنسان عملة اقتصادية فى سوق الصناعة والتجارة تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد .

« الماديون »

– « الإنسانية شىء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان – والشىء الموجود حقًّا هو الفرد الواحد .. وبرهان وجوده حقًّا أن يفعل ما استطاع من نفعٍ أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث » .

« العقليون »

– « الإنسان واحد من عنصر سيد أو مسود .. وأبناء الإنسانية جميعًا عبيد للعنصر السيد – والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار دون اختيار » .

« الفاشيون »

— « الإنسان روح وجسد .. دنيا وآخرة .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء — وهو إنسانان : إنسان صحيح مقبول وإنسان زائف مدخول .. والإنسان قد يولد بذنب غيره .. وقد يموت بذنب غيره .. وقد يبرأ من الذنب بكفارة غيره وهو يمضي بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار.

« أهل العقائد الإلهية »

مقالة عن الإنسان

من قصيدة للشاعر الإنجليزى (إسكندر بوب)

(١٦٨٨ - ١٧٤٤ م)

اعرف إذن نفسك ولا تدعِ الإحاطة بعلم الله .
إن دراسة الإنسان المثلى .. هى الإنسان ،
قائماً على برزخه هذا من الحالة الوسطى ،
مخلوقًا عاقلا فى ظلمة ، عظيمًا فى خشونة ،
أعلم من أن يكون شكوكيًا لا يدرى ،
وأضعف من أن يكون رواقيًا يصبر ،
معلقًا بين العمل والراحة ،
معلقًا بين الإلهية والبهيمية ،
معلقًا يتردد بين إيثار عقله أو بدنه ،
يولد .. ولكن ليموت ..
ويعلم .. ولكن ليخطئ ..
يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد ..
ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة ..
وهو .. هو .. الذى يسيء إلى نفسه أو يتجنب الإساءة ..
مخلوقًا .. بعضه ليرتفع .. وبعضه لينحدر ..

سيدًا لجميع الأشياء ..
وفريسة لها جميعًا ..
وهو الحكم الوحيد فيما هو حق أو باطل ..
ولكنه يضطرب فى خطأ دائم ..
ولا يزال فخر الخليقة وسخريتها ..
ولغزها الغامض فى آن .

مدخل

الإسلام دين يأمر بالمعرفة ويجعل التفكير فريضة

كانت كلمة (اقـرأ) هي أول كلمة نزل بها جبريل رسولا من الله إلى محمد ﷺ : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة العلق .

والمتدبر لمعانى هذه الآيات يدرك كيف أن كلمة (اقرأ) نزلت (أمراً) سابقاً لكل كلام .. ومدخل آية سابقة لكل الآيات .. ثم إنها كلمة نزلت مؤكدة باسم الرب (رب محمد) .. الله .. الذى خلق .. وهو اقتران كسبت به الكلمة تشريفًا فوق كل تشريف ..

ثم إن كلمة (اقرأ) تتكرر فى السورة مقترنة بصفات من صفات الله (الذى خلق — الأكرم ..) وهو تكرار واعٍ يليق بشرف القراءة وعظيم قدرها وواسع نفعها .. فسبحانك ربنا القائل وتعاليت فما تكرار الكلمة هنا محض تكرار ولا موقعها فى الآيات محض صدفة .. تعاليت وحاشا لك أن تكرر القول كما يكرره البشر من خلقك يلقون الكلام على عواهنه .. وتنزهت عن العفوية .. كل شىء عندك بمقدار .. فأنت الذى تؤتى الحكمة من تشاء من عبادك ..

لذا كان البدء بكلمة اقرأ عدل منك بقدرها .. والأمر بها فريضة يرقى بها

الوجود إلى الخلود .. فما فضل القراءة فى بناء الحضارات ، ورقى الإنسان ، بالشيء الذى يجرؤ على نكرانه أحد من خلقك مهما اختلفت الأجناس وتنوعت الملل .. إذ كيف كان للإنسان أن يعرف ما عرف فى سالف العصر وحاضره لولا قراءته لما كتبه الأولون أو رسموه أو خلّفوه من نقوش على الأحجار والآثار ؟ بل كيف يمكنه أن ينقل ما عرفه لمن خلفه بغير القراءة – والكتابة – ولعل مما يؤكد فضل القراءة والكتابة ما جاء فى كتب السلف المجتهدين بأن القلم كان أول ما خلق الله من الخلق المعنوى .. وكيف التعليم والتعلم بغير قلم ؟ .

وإذا كان المعنى الذى تنصرف إليه كلمة (اقرأ) فى هذه الآية هو (التلاوة من الذاكرة) أى أن الرسول ﷺ : أمر أن يعى القرآن فى صدره ثم يتلوه من الذاكرة – فإن كلمة (اقرأ) فى ذاتها .. لا تأبى أن تحمل معنى القراءة من الصحف المكتوبة .. وبرغم أن المؤمنين كانوا يحفظون فى صدورهم ما يتنزل على محمد ﷺ من القرآن أولاً بأول .. فقد كان الرسول ﷺ إذا تفهم القرآن ووعى آياته بلغها للناس وأمر كاتبًا من الكتاب أن يكتبها بين يديه إما على عسيب (وهو جريد النخيل) وإما على لخف (وهو حجر رقيق) وإما على رقعة .. وكان له كتاب معروفون يكتبون له .. ذكر بعضهم أن عددهم ستة وعشرون وزاد البعض حتى قيل إنهم كانوا اثنين وأربعين منهم الذى لازمه ﷺ فى جميع أدواره التشريعية .. ومنهم من كان يكتب له مدة قلت أو كثرت ومن أشهرهم الخلفاء الأربعة وعامر بن فهيرة وأبى بن كعب وثابت بن قيس بن شماس وزيد ابن ثابت (وهو الذى كلفه أبو بكر بجمع القرآن المكتوب لدى المسلمين) ومعاوية بن أبى سفيان وأخوه يزيد ..

وكان معاوية وزيد بن ثابت ملازمين للكتابة بين يدى رسول الله ﷺ فى الوحى وغيره لا عمل لهما غير ذلك .. وذكر غير هؤلاء كثيرون .. وكان هذا

المكتوب يوضع فى بيت رسول الله ﷺ ويكتب الكتاب لأنفسهم منه صورة ويدلهم الرسول ﷺ على موضع ما ينزل من الآيات من سورته .. فكانت حافظة الأمين وصحف الكاتبين والصحف التى فى بيت الرسول ﷺ تتعاون كلها على حفظ ما أنزل الله سبحانه وتعالى ، من آيات القرآن الدالة على ذلك :

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لا رتاب المبطلون) . . (الآية ٤٨ العنكبوت)

(سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى) (٦ ، ٧ الأعلى) .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٩ الحجر) .

ولذلك لم يحدث للقرآن ما حدث للتوراة وما عداها من أسفار العهد القديم التى وصلت إلى الناس بعد أن حرف فيها الكلم عن مواضعه .. كذلك لم يحدث للقرآن ماحدث فى الإنجيل الذى لم يدون فى حياة السيد المسيح عليه السلام .. وإنما قام بذلك من بعده تلاميذه ثم تلاميذهم من بعدهم .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى الذى نزل الذكر حفظه مما أصاب غيره .. وكان للقراءة والكتابة فى ذلك كما قلنا بدءًا فضلا أى فضل . وإذا كانت القراءة تقترن فى الأذهان دائمًا بالكتابة ، فإن فضل القراءة تجىء فى أنها قد تكون تلاوة من الذاكرة دون حاجة إلى صحائف مكتوبة ، فى حين أن الكتابة لا تكون بغير أدواتها من قلم وقرطاس .. أو حتى أزميل وحجر .. كذلك فإن حروف اسم القرآن (كتاب الله الكريم) تتضمن حروف كلمة (اقرأ) وهو فضل جديد للكلمة يلبسها ثوبًا قشيبًا بين الكلمات .. فإذا علمنا أنها كلمة نزلت فى ليلة القدر .. و (ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر) لتأكد لنا ما قصدناه من بيان فضل الكلمة التى كانت

أول ما نزل من عند الله على خير عباد الله ، لكن الذى يزيد القراءة تشريفاً على تشريف أنها نزلت مقرونة باسم الله الذى خلق وباسم الله الأكرم .. رب الأرباب الذى شرع للإنسان شريعة قيمة مستقيمة تربيه خير تربية بما يجعله أهلا للاستخلاف فى الأرض ليعمر الحياة ويعبد الله .. الله الذى خلق الإنسان من علق .. وعلمه البيان .. وهداه إلى ذاته القدسية فكان الأمر بالقراءة مقترنا بأسمائه الحسنى .. فباسمك يا رحمن يا رحيم نبدأ كل عمل نريد له أن يكتمل .. فهكذا علمنا رسولك ﷺ أن تكون بداية كل عمل (بسم الله الرحمن الرحيم) .. حببها إلينا ويسرها علينا فأجاز للمحدث المحتاج للغسل أن يذكرها برغم أنه ممنوع من قراءة القرآن .. حتى لا يكون البدء بغير اسم الله .. وهكذا نزلت أول سورة من القرآن تعلمك لتقرأ أيها النبى باسم الله الذى خلق .. (خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .) (الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) .

ولكن قد يسأل سائل لماذا تقدمت من أسماء الله صفة الخلق فنقول وبالله التوفيق : الحكمة فى ذلك واضحة جلية[١] فالخلق فى كل مراحله تربية من الرب .. منذ كان الإنسان نطفة تربت حتى كانت علقة .. تربت حتى أصبحت مضغة .. تربت حتى صارت عظامًا تربت حتى كسيت لحماً .. تربت حتى أنشأها الله سبحانه خلقاً آخر نفخ فيه من روحه ليستوى إنسانًا .. (فتبارك الله أحسن الخالقين .) (١٤ المؤمنون) .

فالخلق صفة ينفرد بها الله وحده .. وكل ما عداه مخلوق .. هو وحده الذى يخلق من العدم ما يشاء ..

(هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) . (٣ فاطر)

---

(١) تفسير سورة العلق – م. جمال الدين عياد .

(أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . (٥٨ ، ٥٩ الواقعة)
(هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) . (١١ لقمان)
(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) . (٢٥ لقمان)

فهل بعد ما عرف الإنسان أن الله وحده هو الذى من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره .. ثُمَّ أماته فأقبره .. ثم إذا شاء أنشره .. هل بعد ذلك يكون له أن يقرأ إلا باسمه ؟

فباسمك يا ربنا نقرأ ما نزلت .. نقرؤه تلاوة محفوظة فى صدورنا .. ونقرؤه حروفاً جمعت فى صحائف .. آياتك تملأ الآفاق .. ونراها فى أنفسنا .. نتفكر فى خلق الإنسان وفى خلق السموات والأرض وخلق كل ما تظله أو تحمله السموات والأرض .. نعمل السمع والبصر.. نعمل الحواس والعقل والفؤاد .

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (٣٦ الإسراء) .

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) (٨ الروم) .

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) . (١٦٤ البقرة) .

ويقول سبحانه (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . (٢٢ الأنفال) .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) (٣٢ الأعراف) .

هذا هو الإسلام الدين القيم .. يأمرنا بالمعرفة ويفرض علينا التفكير.. ويجعل أعمال العقل والنظر عبادة ودينًا ..

والإنسان باحث عن المعرفة بفطرته

فالله الذى أبدع كل شىء صنعًا .. حين خلق الإنسان فى أحسن تقويم .. زوده بأدوات التفكير والمعرفة والتعلم .. وخلقه بفطرته باحثًا مستطلعًا متشوقًا .. وجهزه لهذه المهمة بالحس لعالم الماديات .. وبالعقل للاستنتاج مما يأتى به الحس .. وبالروح البصيرة للإيمان بعالم الغيب فالإنسان ليس جسماً كثيفًا فحسب .. ولا هو عقلا هيوليا وكفى .. بل هو إنسان بروحه الشفافة وبصيرته المضيئة .. اجتمعت فى جسده أحاسيسه واصطخبت فى عقله أفكاره ورفت فى روحه مصابيح الإيمان التى تسمو به كل سماء .. فلو أن الله خلق الإنسان حسًّا فقط لكان بهيميًا .. أو عقلا فقط لهوى إلى أسفل درك .. ذلك أن الحس والعقل لهما حدود لا يمكنهما اجتيازها .. إذ ليس فى طاقاتهما أن يدركا إلا عالم الماديات والمحسوس لمسًا أو استنتاجًا .. أما عالم الغيب وما يتصل به فهو مما يعجز العقل عن إدراك كنهه .. وعلى سبيل المثال فالعقل عاجز عن معرفة النفس الإنسانية التى لا تزال من أعقد مسائل العلم والفلسفة .. وعاجز أيضاً عن معرفة حقيقة الضوء .. والضوء أظهر الأشياء وأوضحها .. يقول (كاميل فلامريون) فى كتاب (القوى الطبيعية المجهولة) :

ترانا نفكر .. ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذا السؤال . ونحن نمشى ولكن ما هو العمل العضلى ؟ لا يعرف أحد ذلك .. أرى أن إرادتى قوة غير مادية .. وأن جميع خصائص نفسى غير مادية أيضاً .. ومع ذلك فمتى أردت أن أرفع ذراعى أرى أن إرادتى تحرك مادتى .. فكيف يحدث ذلك ؟ وما هو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟

لا يستطيع أن يجيبنى أحد عن هذا أيضًا .. بل قل لى كيف ينقل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقـل ؟ وقل لى كيف يدرك العقل هذا وأين مستقره ؟ وما هى طبيعة العمل المخى ؟

قولوا لى أيها السادة (الملحدين) .. ولكن .. كفى كفى .. فإنى أستطيع أن أسألكم عشر سنين ولا يستطيع صاحب أكبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر أسئلتى .. و (كاميل فلامريون) بهذه الكلمات يقترب من الحقيقة بقدر ما يبتعد عن ضلالات الماديين فهو يكاد يصرخ فيهم : إن العقل إذا لم تصاحبه فى مسيرته روح مؤمنة تنير له ظلمات دروبه .. وتربطه إلى السماء بخيوط الإيمان والنور والصفاء .. فإن العقل عندئذ يسقط سقطة كبرى .. يصبح فيها ملهاة .. فلا يكون له بغير الروح منجاة ..

وحين ننظر فى أنفسنا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا مهيئين لما نحن له وأنه سبحانه حين قال للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة .. بين لهم أن السيادة للإنسان على سائر المخلوقات بما حباه من خصائص وبما ميزه من ميزات .. ثم إنه علمه من علمه وهداه من فضله .. وفصل له بين النور والظلام .. وبين الحق والباطل .. وبين الرشد والغى .. وأراه الآيات فى الآفاق وفى نفسه .. ونزل عليه القرآن عساه يتدبر وضرب له الأمثال لعله يتفكر .. وأرسل له الأنبياء والرسل من بين بنى البشر عله يهتدى ويقتدى .. وسخر له ما فى الأرض جميعًا .. وعقد له لواء الاستخلاف فى الأرض . وربى فيه جسده وعقله .. وروحه ونفسه .. ثم ترك فيه القرآن هاديًا ومرشدًا . . ، منهاجًا وبصيرة . . ، يرجع إليه تصحيحًا لمسيرته .. وردعًا لنفسه .. وزجرًا لنوازعه .. ونورًا لدربه ، فلا غرو أن يجيء القرآن لكل عصر ومصر .. عارفًا بما كان وما سيكون .. مدركاً لطبيعة الإنسان النزاع إلى البحث عن الغيب والجرى وراء

المجهول منذ وجد .. بدون كلل وبغير ملل . مقدرًا فى الإنسان أنه لا يركن إلى فكرة تروقه حتى يتحرك إلى غيرها .. وأنه كلما ارتقى درجة على سلم المعرفة .. تطلع إلى الدرجة التى تعلوها قافزًا مع كل يوم جديد فى اتجاه التطوير والتجويد ، منقباً عن الأسرار غائصًا فى الأغوار .. وهو فى كل محاولة له ينجح فى أن ينتزع مفتاحًا لمغلق من مغاليق الكون المحيط به .. بقدر ما سعى وبقدر ما أراد الله له أن يعرف أو يتعلم ..

والإنسان بنظرته الباحثة هذه .. يريد لو استطاع أن يرفع الحجب عن عالم الغيب وصولا إلى الله واتصالا .. ملقيًا بنفسه بعد النصب والتعب فى المحيط الإلهى حيث تشف الروح وترف الأنوار وتسكن النفس المطمئنة .. ويزول عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ وينكشف الغطاء فالبصر حديد .

وتلك مرتبة لا يرقى الإنسان إليها بعقله وحده .. بل تصعد به إليها نفسه الزكية وروحه المتوثبة فى مجالات الاتصال بالحقيقة المقدسة .

لذلك نجد الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة عارفة به .. عالمة بدقائقه .. فالإنسان فى الإسلام سيد لكل المخلوقات .. نفخ الله فيه من روحه .. وخلقه فى أحسن تقويم .. علمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له تكريمًا وتفضيلا .. (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون) . (٣٠ البقرة) .

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . (٧٠ الإسراء) .

لهذا كان كل ما فى الكون مسخراً لنفع الإنسان وخيره . (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم وسخر

لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) . (٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ إبراهيم) .

هذا هو الإنسان فى القرآن[١] وهو غير الإنسان فى الفلسفات الحديثة والمادية التى تنظر إليه نظرتها إلى المخلوقات الحقيرة الوضيعة :

فالإنسان عند سارتر : (حشرة حقيرة ودودة قذرة) .

وهو عند نيتشه : (قرد خلقه الخالق ليتلهى به فى أبديته الطويلة)[٢] وحاشى لله أن يخلق ليتلهى بخلقه .. أما الإنسان .. فإنه لو كان بهذا الانحطاط . إذن .. لقنع بمطالب الدود والقرود .. وإذن لسيطرت عليه مطالب الجسد من طعام وشراب ومسكن ولباس وكفى ..

ولما تجاوز هذه المطالب فسعى إلى الترقى والتحضر ونزع إلى الجمال وعشق الحسن وبحث الأسرار .. ولما ظهر لنا بكماله فى القرآن .. بعقله المدرك ونفسه المطمئنة وروحه المتوثبة النورانية .. بل لما كان أهلا لحمل ثقيل الأمانة وخلافة الله .

على أن الله سبحانه وتعالى لم يترك العقل المدرك فى القرآن مطلقاً بلا حدود بل زوده بما يقوم اعوجاجه إن شطح ويوجه تفكيره إن جنح .. وله من الكون

---

(١) الإنسان فى القرآن : عباس محمود العقاد .. مطبعة نهضة مصر.

(٢) وحاشى لله أن يخلق ليتلهى بخلقه . فاللهو من صفات المخلوقين أما الخالق جل وعلا فما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وهو سبحانه يرد على أمثال هؤلاء الملحدين (لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) (الأنبياء) ويبين الله سبحانه وتعالى لنا الغاية من الخلق فقال سبحانه (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (الملك) .

المحيط به كتاب جلى الآيات فى كل الصفحات : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) (١٠١ يونس) .

(ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .
(٣ الملك)

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .) (٦ ، ٧ ، ٨ ق) .

(ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله .) (٤٣ النور) .

فلأمرٍ مّا كرر الله سبحانه آيات السير فى الأرض والنظر القرآنى لاستنطاق آثارها واستطلاع أخبارها ، والبحث عن مكنون أسرارها .. مصحوبة بالتفكير والاستدلال ليجىء الحكم على مقتضى ما تنطق به الآثار وتؤكده الأخبار وتكشف عنه الأسرار.

ولسر ما جاء هذا الأمر فى القرآن ثلاث عشرة مرة نعى فى سبع منها على السابقين إرسالهم الأحكام بغير حذر وبصر ودون سير ونظر ، وأمر سبحانه وتعالى الإنسانية فى ست مرات أخرى أن يكون حكمهم صحيحاً مبنيًّا على البحث والتنقيب والتفكير والاستدلال والتخريج .

فالإنسان مأمور بالنظر إلى الكون من حوله بكل ما هو مركب فيه من آيات الإدراك وأدوات العلم والمعرفة (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) . (٣٦ الإسراء) والكون ليس كتابًا مغلقًا لا ينفتح إلا للعلماء والحكماء .. وإنما هو صفحة يقرؤها كل إنسان بقدر ما وسعت مداركه .. فإن لم تدركها حواسه أسعفه عقله .. فإن لم يدركها عقله كلها .. أسعفه فؤاده ..

كذا .. فليقرأ الإنسان (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) (واقرأ) هنا .. هى الدرب والمنهاج .. (وقل رب زدنى علمًا) . (١١٤ طه) و (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . (٩ الزمر) لو كان لها من استواء لما قال الرسول ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . ويقول ﷺ : « يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهداء يوم القيامة فيرجح مداد العلماء » .

فتكليف الإسلام لنا بالتعلم والبحث تأكيد لصفة حسنى من صفات الله سبحانه وتعالى حيث هو العالم العليم : (يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) (٤ التغابن) . (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) (٢ سبأ) (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) . (٦١ يونس) .

لذا كان أول أمر من الله للإنسان هو (اقرأ) .. ذلك أن الإنسان إذا قرأ عرف .. ومن عرف نفسه .. عرف الله .. وتلك هى الغاية (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وفى هذا الكتاب الذى بين يديك عزيزى الإنسان نحاول – والله الموفق – أن نجيب مما علمناه وتعلمناه على سؤال هو فى الحق جامع لكل سؤال عن حقيقة الإنسان أو حقيقة البدن والروح والنفس .. نعرض له بقدر ما اتّسع اجتهادنا وما استوعبنا من قراءاتنا لعديد من الباحثين والعارفين من السلف ..

والمجتهدين من الخلف .. متخذين من القرآن والسنة هاديًا ومرشدًا يعين على وضوح الرؤية وبيان المقصود .. فإن أصبنا المراد فمن توفيق الله لنا وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا والله خير معلم وهاد .

د . عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحيى

البَــابُ الأول

كيف بدأ الخلق ؟

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) .

(٢٠ ، ٢١ العنكبوت)

كيف بدأ الخلق ؟

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)   (٢٠ العنكبوت)

هذا هو السؤال .. وأى سؤال كان أولى بالمعرفة من هذا السؤال بالذات ؟ إنه سؤال البداية إذا أراد الإنسان أن يعرف البداية .. وإنه سؤال النهاية إذا أراد الإنسان أن يؤمن بالنهاية .. ومن عجب أن إجابة هذا السؤال يمكن أن تستغرق عمر الإنسان كله أيضًا من البداية حتى النهاية .. وهى إجابة لابد جامعة لكل ما يجب على الإنسان أن يعرفه من علوم الدنيا .. وعلوم الآخرة .. (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟) والسؤال هنا يبدأ فيأمرنا بالسير فى الأرض .. السير وليس القعود أو اليأس أو الأخذ بالمعلوم السهل وعدم الجرى وراء المجاهيل .. (سيروا) ويالها من كلمة .. أين منها (ابحثوا) أو (تعلموا) أو (ارتحلوا) أو (اسألوا) .. إلخ إنه كلام الله .. وكفى .. (سيروا) فى كل عصر ومصر فالأرض هنا بمعنى المكان والزمان ثم يجىء أمر الله لنا أيضاً فى ذات السؤال (فانظروا) .. انظروا بكل ما لديكم من وسائل النظر والبحث والفكر .. انظروا بعقولكم .. انظروا بعدساتكم .. بمخابركم الحديثة .. بمواد الكيمياء .. بالغواصات .. بسفن الفضاء .. بل حتى ببصائركم وأفئدتكم .. (فانظروا) هكذا جاءت مطلقة غير مقيدة فيها الأمر بالمعرفة .. وفيها الأمر بالنظر تمهيدًا للإيمان وإعجازاً كلاميًّا وعلميًّا .. كيف بدأ الخلق ؟ وكيف بالذات .. وليس أين بدأ الخلق ؟ أو متى بدأ الخلق .. أو حتى لماذا بدأ الخلق ؟ بل كيف؟.

وسبحانك يا خالق الأكوان .. والله إن الإنسان بعقله المحدود وجهده المكدود .. لا يملك أمام هذا السؤال غير السجود لخالق كل ما فى الوجود .. ومن أين يبدأ الإنسان .. وإلى أين ينتهى مع مثل هذا السؤال الجبار .. وكيف تكون مسيرة الإنسان معه حتى لو عرف له نقطة بداية ؟ فاللهم علمنا من علمك وأَنِرْ لنا طريقنا الديجور ... بما تهبه للطائعين من بصائر النور .. واللهم إنا باسمك نبدأ وإليك بما تعلمنا ننتهى .. فيسر علينا الصعاب .. وافتح لنا مغاليق الأبواب واكشف لنا عن طلاسم الإنسان كل نقاب .. إنك أنت الوهاب .. وعفواً يا عزيزى القارئ إذا نحن لم نعالج فى هذا الكتاب غير بعض ما يفتح به الله علينا فى (بعض) جوانب خلق الإنسان .. الإنسان بالذات .. وليس الخلق فسبحان المحيط بالخلق .. وعوالمه .. وهل نحن إلا عباد من بنى الإنسان ؟ الإنسان الذى يحيط به من كل جانب .. الجهل .. والغفلة والنسيان ؟ أو يعلمه من علمه الرحمن .. وهو نعم المولى المستعان .

ومهلا أخى الإنسان ، فإننا لا نكاد نبدأ أول خطوة فى الإجابة حتى يخرج علينا سؤال جديد :

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً[1]) وهو سؤال يدفعنا من جديد إلى ما قبل البداية .. حين لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً . فمتى يا رب كان ذلك الحين ؟ وهل كان الإنسان فيه موجودًا أو لا ؟ أو أنه كان موجودًا ولكنه لم يكن شيئًا مذكورًا ؟ وما هو يا ترى معنى (مذكورًا) فى هذا السؤال ؟

وتتوالى الأسئلة وتتتابع : « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ . . مم خلق يارب .. من تراب ؟ من طين لازب ؟ من حمأ مسنون ؟ من صلصال كالفخار ؟ من

---

(١) الإنسان/١ .

نطفة أمشاج ؟ من ماء دافق ؟ من منىٍّ يمنى ؟ وما هى مراحل وأطوار خلقه يا ترى ؟ وكيف يحمل ذريته ؟ وكيف يتحدد عمره ورزقه .. إلخ ؟ وما هى الظلمات الثلاث التى تحتويه جنيناً ؟ وما هى النطفة والعلقة والمضغة ؟ ومتى وكيف تحل بها الروح ؟ وما هى الروح ؟ وهنا تتداعى الأسئلة وتتزاحم .. فالروح عالم مثير مثير .. مثلا السؤال عن قدمها وحدوثها .. وماذا يقول الأقدمون والمحدثون عنها ؟ وما صلة الروح بالنفس والعقل ؟ وكيف كانت فكرة الروح عند الإنسان البدائى ؟ وكيف انتقل من فكرة الروح إلى خلود الروح ؟ ثم كيف انحرف إلى تعبد أرواح الأجداد ؟ وهل امتد ذلك إلى الجمادات ؟ وكيف نظر الفراعنة إلى الروح ؟ وماذا قال الإغريق والرومان والهندوس عنها ؟ .

ثم ننتقل إلى الروح فى الفكر العربى والإسلامى فماذا قال الفارابى ؟ وابن سينا ؟ والغزالى ؟ وعلماؤنا المعاصرون ؟

ثم تتفرع الأسئلة وتتشعب :

فما مفهوم كلمة الروح فى اللغة العربية ؟ وما حديث القرآن عنها ؟ وهل الروح والنفس شىء واحد أو شيئان ؟ وما الفرق بينهما ؟ .. بل ما مراتب الروح ؟ وما أنواع تعلقها بالبدن ؟ وهل الروح جسد أولا ؟ ولماذا لا ؟ وهل الروح سبب الحياة ؟ وما معنى ذلك ؟ وما هى الدلائل على خلق الروح ؟ وهل سبقت البدن فى الخلق أو لحقت به ؟ وهل هى جسم متحيز ؟ ثم هل تموت الروح أولا ؟ وأين مستقرها بعد الموت ؟ وكيف تكون حالتها بعد مفارقتها للجسد ؟ .

ويمتد الحديث إلى الحياة بعد الموت والبعث والخلود وعن الاتصال بين أرواح الأحياء والأموات .. وتحضير الأرواح .. ثم حديث آخر عن النفس أيضا .. فما حقيقة النفس ؟ وما أنواعها ؟ واحدة أو ثلاث أو أكثر ؟ وكم

عدد دورها ؟ وما معنى موت النفس ؟

وبعد .. عزيزى القارئ الإنسان :

هذا عرض لبعض عناصر الكتاب أردنا أن نضعه بين يديك .. فقط لترى كم هو حق ما نقول به من أن العلم أوسع من أن يحاط به حتى لو كان علم الإنسان عن روحه ونفسه.. فسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم ..

ما قبل خلق آدم

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورًا) (١ الإنسان)

هل : بمعنى قد . قاله الكسائى والفراء وأبو عبيدة[٢] وحكى عن سيبويه . وهى جملة خبرية بمعنى قد أتى . والإنسان هو آدم عليه السلام . وحين من الدهر : قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : أربعون سنة مرت به قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف .

وعن ابن عباس أيضًا وفى رواية الضحاك : أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ، وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح . وقيل الحين المذكور ها هنا لا يعرف مقداره .

وعن ابن عباس أيضًا حكاه الماوردى : لم يكن شيئاً مذكوراً : قال الضحاك عن ابن عباس أى كان جسدًا مصورًا ترابًا وطينًا لا يذكر ولا يعرف

(٢) تفسير القرطبى ص ٦٩٠٩ ط دار الشعب/القاهرة .

ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورًا قاله الفراء وقطرب وثعلب . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئًا مذكورًا فى الخلق وإن كان عند الله شيئًا مذكورًا . وقيل ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار فإن أخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر . تقول فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليقة . ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمله الأمانة التى عجز عنها السموات والأرض والجبال ظهر فضله على الكل فصار مذكورًا .

قال القشيرى : وعلى الجملة ما كان مذكورًا للخلق وإن كان مذكورًا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : (لم يكن شيئًا مذكورًا) قال : كان شيئًا ولم يكن مذكورًا . وقال قوم : النفى يرجع إلى الشىء أى قد مضى مدد من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر فى الخليقة لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة والمعدوم ليس بشىء حتى يأتى عليه الحين . والمعنى قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئًا ولا مخلوقًا ولا مذكورًا لأحد من الخليقة[٣] . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل . قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقةٍ لله جل ثناؤه خليقته كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا . لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله . ولم يخلق بعده حيوانًا . وقد قيل : (الإنسان) فى قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين) عنى به الجنس من ذرية آدم وإن الحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان فى بطن أمه . (لم يكن شيئًا مذكورًا) إذ كان علقة ومضغة لأنه فى هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه

(٣) جدير بالذكر أن الجن والملائكة وغيرها من الخليقة سبقت خلق آدم .

الآية : ليتها تمت فلا نبتلى أى ليت المدة التى أتت على آدم لم تكن شيئًا مذكورًا تمت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده . وسمع عمر بن الخطاب رضى عنه رجلا يقرأ الآية السابقة . فقال : « ليتها تمت » .

بدء المخلوقات وأوائل الكائنات الكلية[٤]

* أول ما خلق الله تعالى القلم . قال له اكتب فقال يارب ما أكتب ؟ قال : اكتب علمى فى خلقى إلى يوم القيامة فجرى القلم بما أمره به سبحانه فافتقر إلى موجده وبارئه تعالى وتقدس (ذكره الشيخ فى الدرة البيضاء) .

* أول ما خلق الله تعالى العقل يعنى بعد القلم واللوح المحفوظ . خلق العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتى وجلالى ما خلقت أجل منك شيئًا ، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب (الغزالى فى خبر الملوك) .

* أول ما خلق لله من الأشياء النباتية اليراع أى القصب . ثم خلق القلم من ذلك اليراع ثم قال : اكتب ما يكون إلى يوم القيامة (السيوطى فى الهيئة السنية) .

* أول المخاطبين هو أوّل المخلوقين وهو العقل الهيولى النورانى . ولما كان لا نظير له فى المخترعات الأوليات كانت مخاطبة الحق له بما فيه من معانى الحروف

(٤) المصدر : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر : تأليف العلامة الشيخ علاء الدين على دده السكتوارى البسينوى . فرغ من تأليفه فى شهر رجب سنة ٩٩٨ . طبعة أولى المطبعة العامرية الشرقية سنة ١٣١١ هـ . وهو تلخيص كتاب السيوطى فى معرفة الأوائل وعن غيره من الكتب كتحفة الألباب وتاريخ الخلفاء وسير الملوك وكنز الأسرار . . إلخ .

فى سر العقل ألِفًا واحدًا لأنه حقيقة مجمع الحروف بالقوة فسمع أسرار العلوم بحقائق الحروف قبل وجودها فى عالم الأسماء فهو صاحب رمز وإشارة وإدراك (من شمس المعارف) .

* أول ما خلق الله تعالى العقل ثم النفس ثم الطبيعة ثم الهيولى ثم الجسم الكلى ثم الأفلاك ثم الأركان ثم المولدات وهى المعادن والنبات والحيوان وآخر موجود الإنسان .. وخلق الله الأرواح على مراتبها من مرتبة العقل إلى ما دونه (الدرة البيضاء) .

* أول ما خلق الله تعالى يعنى من العناصر الكلية الجامعة ، قال ابن وهب : خلق الله تعالى أولا جوهرة مضيئة طينة خاتم الأنبياء وعنصر سيد الأصفياء محمد ﷺ كفضة خاتم ، ونظر فيها بالهيبة فذابت وصارت ماء وهو الذى استوى العرش عليه ثم تموج الماء واجتمع فى وسطه قطعة زبد فانفلقت أربع قطع فخلق من كل قطعة حرمًا حرم الكعبة والمدينة والقدس والكوفة وهو حرم رابع عند بعض المحققين وهو المروى عن على رضى الله عنه ولذا اتخذها على دار الخلافة وسيتخذها المهدى خليفة آخر الزمان ثم تلألأت الأرض من تلك الطينة فلما ركب آدم منها من طين تلألأت جبهته بنوره ثم نقل النور من صلبه إلى صلب طاهر حتى أخرجه من بين أبويه لم يلتقيا على سفاح قط كما ذكره فى الشفاء وغيره . قال الحافظ الدمشقى فى وصف آبائه بنوره ﷺ :

تنقّل أحمد نوراً عظيمًا تلألأ فى جباه الساجدينا
تنقل فيهم قرناً فقرنًا إلى أن جاء خير المرسلينا

* أول الأنبياء خلقًا سيدنا محمد ﷺ كما قال : كنت أول الأنبياء خلقًا وآخرهم بعثًا . وعن كعب الأحبار لما أراد الله تعالى أن يخلق جسد سيدنا محمد

ﷺ جاء سيدنا جبريل بقبضة نقية بيضاء من نور الأرض من موضع قبره ، وكانت تلك القبضة فى موضع الكعبة فغسلت فى أنهار الجنة وعجنتْ بماء الرحمة ، وطيف بها عوالم الملكوت حتى عرفت الملائكة اسمه ونعته قبل اسم آدم بألف عام ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين :

* أول ما خلق الله تعالى من الأجسام جوهرة تلألأت فكانت طينة سيدنا محمد ﷺ منها ونظر إليها بالهيبة فصارت ماء وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات ، ثم تموج الماء فخلق الأرض منه فكان يتلألأ نور الطينة النبوية لأهل السماء كالقمر لأهل الأرض ، ثم خلق من الأرض طينة آدم فكان يتلألأ نوره من جبهته ، وكان نوره ﷺ مع اسمه الشريف فى كل موضع من الجنة وعلى نحور الحور العين وجبين الملائكة وساق العرش وأبواب السموات ، وكان فى الأرض فى موضع قبره غالبًا على نور الشمس حتى انتقل إلى جبين آدم حين خلق أصول التواريخ .

* أوّل ما بدأ وسرى من حضرة الكون نور سيدنا محمد ﷺ وهو أنه لما قتل قابيل أخاه هابيل اغتم آدم بذلك فأمره الله تعالى أن يغشى زوجته وأوحى إليه قم فتطهر وتطيب وتوضأ وصل واغش زوجتك على طهارة ، فإنى مخرج منك نورى أجعله خاتمَ الأنبياء وخيار الخلفاء وأُختم به الزمان ، فواقع آدم حواء عند ذلك فحملت لوقتها وأشرق نوره بجبينها فوضعت شيثا عليه السلام ثم انتقل نوره ﷺ من صلب طيب إلى طاهر أخرجه من بين أبويه لم يلتقيا على سفاح قط ﷺ ، كما أشار فى الحديث المشهور : أول ما خلق الله روحى أول ما خلق الله نورى قال أهل التحقيق لا شك أنه ﷺ مبدأ كل كمال ومنشأ كل خصال وله السبق والتقدم والفتح والختم ظاهرًا وباطنًا فى جميع الفضائل والكمالات .

وهذا حديث جامع من بدء خلق رسول الله ﷺ أخرجه العلماء مرويًّا عن

جابر الأنصارى رضى الله عنه حين سئل عن بدء خلقه فقال :

أول شيء خلقه الله تعالى نور نبيك يا جابر ، خلقه ثم خلق منه كل خير وخلق بعده كل شيء وحين خلقه أقامه قدامه فى مقام القرب اثنى عشر ألف سنة ، ثم قسمه أربعة أقسام فخلق العرش من قسم والكرسى من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسى من قسم ، وأقام القسم الرابع فى مقام الحب اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم ، وأقام القسم الرابع فى مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء وخلق الشمس والقمر من جزء والكواكب من جزء ، وأقام الجزء الرابع فى مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء ، وأقام الجزء الرابع فى مقام الحياء إثنى عشر ألف سنة، ثم نظر الله تعالى فترشح النور عرقًا فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفًا وأربعة آلاف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبى ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسى من نورى، والكروبيون[1] والروحانيون من نورى، وملائكة السموات السبع من نورى، والجنة ومافيها من النعيم من نورى، والشمس والقمر والكواكب من نورى ، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نورى ، ثم خلق الله اثنى عشر ألف حجاب فأقام النور وهو الجزء الرابع فى كل حجاب ألف سنة وهى مقامات العبودية وهى حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة والرأفة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين فعبد الله ذلك

---

(١) الملائكة الكروبيون : أقرب الملائكة إلى حملة العرش.

النورُ فى كل حجاب ألف سنة فلما خرج النور من الحجب ركبه الله فى الأرض فكان يضىء منه ما بين المشرق والمغرب كالسراج فى الليل المظلم ، ثم خلق الله تعالى آدم من الأرض وركب فيه النور فى جبينه ثم انتقل منه إلى شيث ، فكان ينتقل من طاهر إلى طيب ومن طيب إلى طاهر إلى أن وصل إلى صلب عبد الله ابن عبد المطلب ومنه إلى رحم أمى آمنة ، ثم أخرجنى إلى الدنيا فجعلنى سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين وقائد الغر المحجلين ، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر أخرجه الشيخ الأكبر وصنف كشف الكشاف فى شرح البردة وغيره من العلماء رحمهم الله فثبت بذلك أن جميع المكونات تكونت بإفاضة فيض نور الرسول ﷺ الذى هو القاسم المستفيض من الفيض الأول الأقدس .

وأخرج القاضى فى الشفاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ : لما خلق الله تعالى آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم ، ثم لم يزل ينقلنى فى الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من بين أبوى لم يلتقيا على سفاح قط ، قال القاضى وإلى هذا أشار عمه العباس رضى الله عنه فى قصيدته الشريفة فى مدحه ﷺ .

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرًا وأهله الغرق
وردت نار الخليل مكتتمًا تجول فيها ولست تحترق
تنقل من صلب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق

* أول يوم خلقه الله يوم الأحد (السيوطى) .

* أول ابتداء خلق العالم كان فى يوم الأحد والفراغ فى يوم الجمعة وفيه نفخ

فى آدم الروح ، ثم خلقت حواء من آدم عليهما السلام وأسكنا الجنة ثلاث ساعات وهو ربع يوم من أيام الآخرة مائتا سنة وخمسون سنة من أعوام الدنيا [من أصول التاريخ] .

* أول ما خلق من الزمان الليل ثم النهار ثم الشمس ثم القمر فجعل الشمس ضياء والقمر نورًا يعنى لأهل الدنيا ، وأما الآخرة فليس فيها شمس ولا قمر ، لأن الجنة نور كلها (كنز الأسرار) .

* أول ما خلق الليل مظلماً وخلق النور فطرد الظلمة إلى حيث شاء الله ثم خلق الشمس والقمر والنهار وليس لله خلق أعظم من الليل والنهار ، وكان يقول بعض الأعيان إذا جاء الليل جاء خلق الله الأعظم . وذكر بعض المفسرين أن الله خلق جوهرتين إحداهما مظلمة والأخرى مضيئة فاستخلص من المضيئة كل نور ، فخلق من نورها النهار ومن الباقى النار واستخلص من الظلمة كل ظلمة فخلق منها الليل وخلق من الباقى الجنة ، فالليل من الجنة والنهار من النار فلذلك كان الأنس بالليل أكثر وهو محل المعراج ، وأنس المحبين ومرآة المشاهدة ومحل التنزلات الربانية وكلها فى الجنة (كنز الأسرار) .

* أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم بينهما فجعل الظلمة ليلا وجعل النور نهارًا (السيوطى) .

* أول شىء بناه الله السماء وجد فى التوراة (أوائل السيوطى) .

* أول ما خلق من الحيوان النحلة وآخر ما خلق من الحيوان القرد (ذكره الشيخ الأكبر) .

* أول ما خلق من النبات الكمأة*(١) . (ذكره الشيخ أيضًا).

* أول ما خلق الله آدم عليه السلام خلقه فى جنة عدن ذكره جمهور العلماء وقيل فى سماء الدنيا وقيل غير ذلك والأول أصح . وكان بين خلقه ونفخ

---

* (١) نبات يشقق الأرض فيخرج كما يخرج الفطر.

الروح فيه أربع جمع من جمع الآخرة ، وعن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما لما خلق الله تعالى الجنة وأسكن فيها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يأنس به فيها ، فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من الجانب الأيسر ووضع مكانه لحماً فخلق حواء منه فلما استيقظ آدم وجدها عند رأسه قاعدة فسألها من أنت قالت : إنى امرأة قال : لم خلقت قالت لتسكن إلىّ وأسكن إليك فقالت له الملائكة : يا آدم ما اسمها قال حواء ، قالوا ولم سميت حواء قال : لأنها خلقت من حى ، قال أهل التاريخ ، وأما عمرها فتسعمائة سنة وسبع وتسعون وقيل وسبع وسبعون (كنز الأسرار) .

* أول من أسكنه الله تعالى الأرض قبل آدم عليه السلام طائفة من الجن خلقهم من مارج من نار وإبليس فيهم ، فنهاهم الله عن سفك دماء البهائم فسفكوا وعدا بعضهم على بعض ، فلما رآهم إبليس لا يقلعون سأل الله تعالى أن يدفعه إلى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله تعالى أشد عبادة فأرسل الله تعالى إلى الجن قبيلا من الملائكة فطردوهم إلى أقصى جزائر الدنيا وقتلوا منهم ما شاء الله ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازنا فوقع فى صدره كبر فأبى واستكبر فجرى فيه قدر الله تعالى ما حكاه عنه سبحانه من الطرد والكفر قال أهل التفسير إن الجان أبو الجن كما أن الإنسان أبو الإنس وسمى جانًّا لتواريه عن الأعين وفى إبليس ثلاثة أقوال : أنه من الجن ففسق ، أو من الملائكة فمسخ ، أو من الجنانيين فطرد والعياذ بالله (كنز الأسرار) .

* أول ما أهبط من الجنة آدم وحواء ، أهبطا متفرقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفات وبتعارفهما أولا فيه سمى بهذه التسمية ، فلما اجتمعا فيه تاق أى اشتاق إلى حواء فغشيها فاشتملت على ذكر وأنثى ، فسمى الذكر قاين والأنثى إقليما ، واختلف فى الذكر الأول ، فذكر الأكثرون أن اسمه قاين ومنهم من قال

قابيل ، وهو الأشهر والأغلب ، وفى الأخبار أن الولد الأول مات ثم الثانى ثم عاش بعدهما ولد ، فأول ولد عاش قابيل (كذا ذكره بعض المحققين توفيقاً وتطبيقاً) .

* أول ما أهبط آدم وحواء من الجنة ، أهبطا متفرقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفات ، ونزلت حواء بجدة قرب مكة من الحرم وآدم على جبل الراهون كما مر وعليه الورق الذى خصفه فيبس فذرته الرياح فى بلاد الهند ، فتكونت الروائح الطيبة بأرض الهند من ذلك الورق ولذلك خصت بالعود والقرنفل والمسك وسائر الطيب وأيضًا ذلك الجبل ينبت عليه اليواقيت وفيه الماس وغيره من الجواهر (زبدة التواريخ) .

* أول ما اختار آدم عليه السلام عند عرض الأشياء كلها عليه الخيل ورد فى الخبر ، لما عرض الله تعالى على آدم عليه السلام كل شىء مما خلق قال له : اختر من خلقى ما شئت فاختار الفرس فقيل له أخذت عزك وعز ولدك خالدًا ما خلدوا وباقيًا ما بقوا أبد الآبدين (شفاء الصدور عن ابن عباس رضى الله عنهما) .

* أول ما يكون الجنين فى الرحم يكون فى الشهر الأول فى تدبير زحل ، وفى الثانى فى تدبير المشترى وفى الثالث فى تدبير عطارد حتى يكون فى السابع فى تدبير القمر ، فإن ولد فيه عاش لأن خلقته قد تمت واستوفت طبائع الكواكب وقواها بالتشمس والتنجم ، لأن كمال الوجود بينهما ، وأما الشهر الثامن فيستولى عليه البرد والجمود والضعف فإن ولد فيه مات وأما التاسع فيتولاه المشترى فيكتسب المولود قوة وحرارة وصلاحاً ، فإذا ولد عاش ، فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثره أربع سنين (من شرح لامية العجم) .

* أول ما تعلقت به القدرة من عالم الأمر الإلهى الروح وهو المسمى بالروح

المحمدى الكلى تكونت الأرواح منه قبل الأجسام كما أشار ﷺ أنا أبو الأرواح وآدم أبو البشر (تحقيق) اختلف أهل التحقيق فى تعريف الروح يقول الإمام الغزالى ما معنى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) ، وما معنى عالم الأمر وعالم الخلق ، فقال عالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال ، والجهة والمكان ، والتخير وهو ما لا يدخل تحت المساحة والتقدير ... ، وعالم الخلق عبارة عن كل ما يقع عليه مساحة وتقدير من الأجسام وعوارضها وقال : الروح أمر ربانى وحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا جسم ولا هو متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم ولا منفصل عنه ولا هو داخل فى أجسام العالم : والبدن ولا خارج ، بل الروح نفحة ربانية ولطيفة إنسانية سارية فى عالم البدن سريان التصرف والتدبير من السلطان إلى ممالكه تحت تصرفه وحكمه وقيل : جوهر مجرد غير متحيز ، وقيل : جسم لطيف وراء هيكل المحسوس له هيكل نورانى وجسم روحانى سريانه فيه كالماء فى الورد والنار فى الفحم والسم فى البدن وقيل : سريانه فى البدن تعلق التدبير والتصرف كالشبكة فى يد الصياد والإقليم تحت حكم الملك له جنود من القوى الباطنة والظاهرة مسخرة تحت حكمه بأمر بارئه ومبدعه على خمسة عشر وجها بل أكثر وأصحّ تعريفاته السكوت وتفويض أمره إلى موجده وبارئه من العدم والوقوف عند قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) .

* أول ما نفخ الروح فى آدم فى رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه فقال : يارب عجل قبل الليل ورد فى الحديث عن سلمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ .

* أول ما قال آدم بعد نفخ الروح الحمد لله رب العالمين وهى أول كلمة جرت على لسانه فقيل له ولهذا خلقت يا آدم ورد فى الحديث الصحيح بمعناه .

* أول حركة صدرت من آدم بعد نفخ الروح العطاس لما سرى الروح فى أعضائه بعد دخوله من الخيشوم وصل إلى الدماغ ، فعطس وحمد الله تعالى فصار التحميد أول سنة بشرية ظهرت على لسان آدم ، فكانت أفضل من الفرد المقابل من الرد للحاق العاطس من تشميت الملائكة ، فلهذا ورد : أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين ، فتكلم الأفضل من الملائكة بالأفضل من القرآن ، لأنه قد ورد فى الحديث أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين ، فبدأ به أولا وختم به آخرًا ، كما قال تعالى فى أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين الآية (قاله بعض المحققين) .

* أول ما خلق الله تعالى من أعضاء الإنسان فرجه ثم قال : هذا أمانتى عندك فلا تضعها إلا فى حقها (أخرجه السيوطى فى الأوائل) .

* أول من سجد حين أمرت الملائكة بالسجود لآدم إسرافيل عليه السلام ، ولذا وكل بالأرواح الإنسانية بالصورة واللوح المحفوظ المتعلق بعالم الإنسان (السيوطى) .

* أول مخلوق على صورة الإنسان قبل خلق البشر إسرافيل فإن الله خلقه على صورة الإنسان وهو أقرب الملائكة إلى الله تعالى ، وفى الحديث النبوى : لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل عليه السلام . قال المحققون كل مخلوق فى مرتبة من صورة وهيئة ظاهرة وباطنة فحسن ، ولكن الإنسان خلق فى أحسن تقويم ، ولم يخلق أجمل منه ولا أحسن ، فتبارك الله أحسن الخالقين . (روضة المعارف) .

* أول من أفشى السلام وبادر بالسلام آدم لما قام على رجليه بعد نفخ الروح ، والتفت يمينًا وشمالا فرأى فى الجنة مجالس الذكر من الملائكة ، فمشى نحو مجلس الذكر ، فهى أول مشية صدرت منه ، ثم استأنس بالذكر

والذاكرين فسمى إنسانًا من الإنس ، فصار السلام سنة ثانية جرت على لسان النبوة . وفى الخبر إنما سمى إنسانًا لأنه نسى ما عهد مع الله تعالى من أكل الشجرة ، ونسى ما وهب من عمره لولده داود عليهما السلام ستين سنة كما ورد فى الأحاديث .

* أول من رد التسليم والترحيم للعاطس الحامد الملائكة على آدم عليه السلام ، فكان ذلك الرد أول الفروض الكفائية على بنى آدم ، فالسنة البشرية من السلام والحمد عند العطاس أفضل من الفرض الملكى من حيث التسبب ، فافهم سر تفضيل آدم علية السلام وتعليمه الملائكة وتشريعه الأحكام من السنن والفروض (ذكره الإمام النووى) .

* أول حمل حواء عليها السلام حمل خفيف مذكور فى القرآن ، كما قال تعالى : (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً) الآية قيل فى تفسيرها فلما قرب وضع أول ولد جاءها إبليس فقال : ما هذا الذى فى بطنك ؟ قالت : ما أدرى فقال : أخاف أن تكون بهيمة ، أو قال : أخاف ألا يعيش كما ورد فى الخبر ، وإنى من الله بمنزلة وقربة ، فإن دعوت الله وولدت إنسانًا صالحًا أتسمينه باسمى ؟ فقالت : نعم ، وما اسمك ؟ قال : عبد الحرث ، فكذب إبليس وكان اسمه فى الملائكة حارث فخدعها فهو أول خدعة فى الأرض ، كما أنه أول خدعة فى أكل الشجرة فى الجنة أو فى السماء (ذكره أهل التفسير) .

* أول ما يخلق فى الإنسان عند تكونه فى الكون الشهادى حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناسًا من الموجودات ، كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، واللمس قاصر عن الألوان ، ثم يخلق له حاسة البصر فيدرك بها الألوان ، وهو يتسع لعالم المحسوسات ، ثم ينفتح السمع فيسمع الأصوات ، ثم يخلق الذوق ثم يخلق فيه التميز وهو قريب من سبع سنين ، ولذا أشار النبى ﷺ : مروا

صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعًا ، ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات فيصير مكلفًا بعد عشر سنين ، فيقبل التأديب والتكليف ، ولذا قال : واضربوهم إذا بلغوا عشرًا فافهم سر التشريع النبوى (ذكره الغزالى فى القسطاس) .

* أول تكوين فى الأرض المعادن ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان وهو آخر مخلوق . (الشيخ الأكبر أيضاً) .

* أول بيت بنى الكعبة ، قال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس لَلّذى ببكة) وفى حديث أبى ذر قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أولا ؟ قال المسجد الحرام ، قال الحسن رضى الله عنه إنه أول مسجد عبد الله تعالى فيه فى الأرض ، بعث الله جبريل إلى آدم عليه السلام فأمره ببناء الكعبة فبناه آدم ، ثم أمر بالطواف به ، وقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس . (السيوطى) .

* أول جبل وضعه الله على الأرض جبل أبى قبيس ثم مدت منه الجبال . (الحديث للسيوطى) .

* أول من وضع مقام إبراهيم للناس بعد الطوفان إلياس بن مضر ولم تزل العرب تعظمه ومضر كان يسمع تلبية النبى ﷺ من صلبه (من تاريخ مكة) .

* أول بيت وضع للعبادة والبركة الكعبة ، قال على رضى الله عنه وابن عباس رضى الله عنهما : هو أوّل بيت وضع فى الأرض ، بناه آدم عليه السلام ، وعن قتادة والحسن كان قبله بيوت كثيرة ، ولكنه أول بيت وضع للعبادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا البيت أحد خمسة عشر بيتاً ، فى كل سماء بيت وفى كل أرض بيت بعضها مقابل بعض ، ولكل بيت زُوّار بل ابن عباس يزوره مثلى ، قال الحسن بن على رضى الله عنهما : إن الله بعث

ملائكة فقال ابنوا لى بيتًا فى الأرض بمثال البيت المعمور وقدره ، وأمر أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، قال : وهذا كان قبل آدم عليه السلام ، واتفقوا على أنه أول بيت وضع للعبادة ، وإنما اختلفوا هل هو أول بيت قال الإمام الغورى قول الجمهور أنه أول بيت وضع مطلقاً (تاريخ مكة).

* أول قرية بنيت على وجه الأرض قرية ثمانين ، بناها نوح عليه السلام لما خرج من السفينة، وسميت باسم الثمانين الذين كانوا معه فى السفينة، كانوا سريانيّين وهو منسوب إلى سورية وهى أرض الجزيرة، وكان نوح وقومه قبل الغرق فيها ، وكان لسانهم سريانيًا إلا رجلا واحدًا يقال له جرهم فكان لسانه العربى (أوائل السيوطى).

* أول ما نزل نوح عليه السلام من السفينة على جبل يقال له الجودى بقرب الموصل ودجلة ، نزل ومعه أولاده سام وحام ويافث وبناته الثلاث وأزواج أولاده وأربعون رجلا وأربعون امرأة ، فابتنوا مدينة الثمانين وقطع نسل هؤلاء الثمانين ، وجعل الله نسل الخلائق من نوح عليه السلام ومن أولاده الثلاثة ، كما أخبر تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، ثم تفرّق نسله وقسم الأرض بينهم وعاش نوح عليه السلام بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة وجميع عمره الشريف وهو الجد الثانى تسعمائة وخمسون سنة (أصول التواريخ).

* أول حائط على وجه الأرض حائط حران ودمشق ثم بابل ، لما هبط نوح عليه السلام من السفينة أشرف من تل حران فأتى حران فخطها ثم أتى دمشق فخطها فكانت حران أول مدينة خطت بعد الطوفان ثم دمشق (أوائل السيوطى).

* أول مدينة مدنت فى زمن الصحابة رضى الله عنهم البصرة ، وهى مدينة عربية بنيت فى خلافته لم يعبد فيها صنم ولم يبن بها كنيسة كان بها سبعة آلاف مسجد (مسالك الممالك وعجائب البلدان).

* أول مدينة مدنت بعد البصرة فى الإسلام الكوفة يقال لها العلوية ، مدنها سيدنا على رضى الله عنه ، وفيها مشهد عظيم يقال فيه إمامنا على رضى الله عنه مع جم غفير رضى الله عنهم (عجائب البلدان) .

* أول موضع أهبط الله فيه آدم جبل يسمى الراهون فى جزيرة من جزائر الهند فى مملكة سرنديب بمكان يقال له الدهناء ، وعليه أثر قدمه عليه السلام وعلى القدم نور طاغ يخطف البصر لا يتمكن أحد أن ينظر إليه ، طول قدمه فى الصخر سبعون شبراً وعلى الجبل ضوء كالبرق ، ولابد لكل يوم فيه من المطر يغسل قدمه ، وإن آدم خطا من هذا الجبل إلى ساحل البحر خطوة واحدة وهى مسيرة يومين ، فلما أهبط خرَّ ساجدًا على صخرة بيت المقدس ، وكان يمسح رأسه الشريف السحاب وكان يشرب من السحاب ، وكان طوله خمسمائة ذراع والله أعلم ، بأى ذراع ثم تضلع ستين ذراعًا وعلى هذه الصورة المقدرة المعينة يدخل أهل الجنة مقامهم الموعود فى طول أبيهم آدم عليه السلام ، وهو أول من تضلع فى الدنيا وعاش ألف سنة . قال ابن عباس وقيل إلاستين عامًا التى كان وهبها لابنه خليفة الله داود عليهما السلام . ومات يوم الجمعة آخر النهار فى الساعة التى خلق فيها والتى أخرج فيها من الجنة ، فلما مات نزلت الملائكة مع أكفانه ولوازمه من التجهيز ، وصلى عليه ابنه الوصى شيث بأمر جبريل عليهم السلام ، وأمره أن يكبر عليه ثلاثين تكبيرة ، وقيل أربعًا ، وفى الخبر صلى عليه شيث مع الملائكة بعدد كل صلاة تصلى على كل مسلم من أولاده الموتى إلى يوم القيامة ودفنه فى غار جبل أبى قبيس ، وهو أول جبل خلق فى الأرض ولهذا السر دفن فيه ، ثم أخرج نوح تابوته زمن الطوفان وحمله فى السفينة ثم أعاده إلى مكانه . وذكر أهل التاريخ فى تاريخ مكة شرفها الله أن نوحًا دفنه بعد الطوفان بمنى فى مسجد الخيف قبل سرته الشريفة تحت المنارة التى فوق الباب

الكبير اليوم سنة سبع وتسعين وتسعمائة . . وردت على مبشرة فى ذلك المكان الشريف ورأسى على عتبة الباب الكبير ليلة من الليالى مدة مجاورتى سنة ثلاث وثمانين خرجت ليلة مع بعض الإخوان من الفقراء المجاورين إلى منى ونمنا قدام باب المسجد فرأيت فيما يرى النائم كأنى أتكلم مع أبى ﷺ تارة فاستيقظت وأنا هائم وجل قائلا بأعلى الصوت السلام عليك يا صفى الله السلام عليك يا آدم ، فتعجبت رفقائى الذين كانوا معى من ذلك وقالوا قد صح واشتهر عند بعض المؤرخين من الثقات كشفا ونقلا أن عنصره الشريف وجسمه اللطيف فى المحل المذكور والله أعلم .

كيف وجد الإنسان ؟

إن الإنسان بما غرز فى طبيعته من قوى النظر والاستقراء والاستنتاج ، كلف منذ وجوده على هذه الأرض بفهم سر الوجود الذى يعيش فيه ، وإدراك ذاته المفكرة ومصيرها . فهو الكائن الأرضى الوحيد الذى شغلت باله هذه المسائل الضخمة واستهوته حلولها المختلفة .

إن الإجابة على ما سبق فى نظر البعض ، تختلف بين الدين والعلم ، وبين دين وآخر ، وبين عالم وآخر .

خلاصة ما ورد فى الأديان

تذكر الأديان أن آدم أبو البشر وأن الله خلقه من طين وعلمه الأسماء كلها وأن آدم وحواء أهبطا إلى هذه الأرض من الجنة . بدليل قوله تعالى لآدم وحواء (اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو) (١٢٣ طه) . ويختلف المفسرون فى

الجنة المذكورة . يقول أئمة الإسلام إنها فى السماء ، وإن الجنة المقصودة هى جنة الخلد ، والخلد ليس للأرض ولا لشىء مما عليها . وتقول التوراة إن الجنة التى أسكن الله فيها آدم وحواء على الأرض ، وإنها على مقربة من عدن ، ولذلك سميت جنة عدن . وتروي الكتب المقدسة ما حدث بعد هبوط آدم وحواء على الأرض وقصة قابيل وهابيل ، وطوفان نوح وغرق كل من على الأرض إلا من أسكنهم نوح فلكه ، وأن الحياة بدأت تعود إلى الأرض بعد انحسار الطوفان .. بدأ النبات ينمو ، وبدأ تناسل الحيوان والإنسان ، وبدأ عصر جديد من عصور التاريخ الإنسانى .

قصة الإنسان من الحفريات[٥]

يقول رالف لنتون فى كتابه شجرة الحضارة الجزء الأول :

« إذا استثنينا بعض المناطق النائية فى مواقعها الجغرافية أو المتأخرة فى حضارتها ، فليس هناك من يشك فى أننا من نسل نوع من أنواع الحيوان ، والمشكلتان الرئيسيتان هما تحديد نوع الحيوان ، ثم معرفة الطريق الذى سار فيه التطور الإنسانى . وبهذه المناسبة يمكننا أن ننبذ فى الحال أحد الأخطاء الشائعة بين الناس . فمن المؤكد أن الإنسان لم يتناسل من أى نوع من أنواع القردة العليا التى مازالت باقية حتى الآن . فهذه القردة ليست أجدادنا ولكنها أبناء عمومتنا الذين افترق فرع أصولهم عن فرعنا منذ مليون سنة على الأقل » .

---

(٥) من كتاب شجرة الحضارة (قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث تأليف رالف لنتون أستاذ الدراسات الإنثروبولوجية بجامعة ييل - ترجمة دكتور أحمد فخرى الأنجلو المصرية .

وفى محاولتنا معرفة ما كان عليه أجداد الإنسان نرانا مضطرين للاعتماد على الأدلة المستقاة من بعض حفريات (fossils) ولكن يحد من قوة تلك الأدلة ما نعرفه عن عمليات التطور ، والصورة الواضحة التى نعرفها عن نظام تطور الرئيسيات بوجه عام . وياليتنا نحصل على حفريات من بقايا الإنسان المبكر أو من حفريات أشباه الإنسان أكثر مما لدينا الآن . إذ يلوح أنه لن نحصل على كثير منها فى يوم من الأيام .

فإلى وقت حديث جدًّا بل بعبارة أدق حتى الوقت الذى بدأ فيه الإنسان يتعلم إنتاجه لغذائه كان ذلك الإنسان نوعاً من الكائنات نادر الوجود نسبيًّا . أما أجدادنا من أشباه الإنسان فكانوا أكثر ندرة لأنهم لم يكونوا مهيئين لاستغلال بيئتهم كما كان يفعل أوائل الناس الحقيقيين ، لأن كل فرد كان يحتاج إلى خمسين ميلا مربعًا لتقوم بأوده ، وهذا تقدير متواضع حتى فى المناطق الملائمة . وفضلا عن ذلك فإن تحول العظام إلى حفريات يتطلب ظروفاً خاصة فإن الجسد الذى يترك ملقى فى العراء يصبح بدوره عنصرًا اقتصاديًّا يضاف إلى ما تقدمه الطبيعة إذ تتولى أمر ذلك الجسد الجوارح من الصقور وأبناء آوى وجميع أنواع أكلة الرمم ، حتى البكتريا التى تتغذى على الدم وعلى نخاع العظام ، والقوارض التى تأتى فى النهاية على تلك العظام لأجل ما تحويه من الهلام (الجيلاتين) والجير . فإذا كان لهيكل عظمى أن يظل محفوظاً فيجب أن يغطى وألاَّ يترك عاريًا . ومعظم ما وصل إلينا من حفريات الحيوانات التى عاشت على الأرض ، ليست إلا بقايا لبعضها . وهى التى سقطت فى مستنقعات ، أو غاصت فى رمال متحركة أو غرقت فى أنهار واستقرت فى مياه راكدة حيث رسبت العظام فى القاع ، ودفنت فيه حتى أسلافنا من أشباه الإنسان ، فمن المحتمل أنهم دفنوا فى المستنقعات أو الرمال المتحركة ولكن بنسبة أقل ممن كانوا يعيشون معهم فى

المكان نفسه من الحيوانات التى كانت أكبر حجماً منهم وأقل ذكاء ، على حين كانت الرئيسيات بوجه عام تتحاشى النزول إلى الماء ولا تميل إليه أبدًا . وقد عثر على عدد قليل نسبيًّا من حفريات الحيوانات الثديية فى الكهوف ، ولكن الكهوف لا توجد إلا فى جهات قليلة ، وفى الوقت الذى كان فيه الإنسان قد أخذ يتطور كانت تقطنها ضوارٍ مؤذية كبيرة الحجم من أكلة اللحوم .

ولكن بالرغم من كل تلك المصاعب فقد عثر على عدد لا بأس به من الحفريات الإنسانية وحفريات ما نسميه طلائع الإنسانSub Humanوليست هناك فائدة كبيرة من وراء محاولة وصف تلك الحفريات بالتفصيل ، وذلك لأنه لا تمضى بضعة شهور حتى يكتشف شىء جديد منها ، فإذا ما كتبنا أى بيان بها فإن هذا البيان سيصبح بيانا ناقصًا عند الانتهاء من طبع هذا الكتاب ووصوله إلى أيدى القراء .

والأهمية الرئيسية لتلك الحفريات هى أنها توضح لنا اتجاه التطور الإنسانى . إنها نقط على خط السير التطورى ومع تنقل البصر من واحدة إلى الأخرى يمكننا أن نمد هذا الخط التطورى من مرحلتنا الإنسانية راجعين إلى الوراء نحو الماضى البعيد ، فإذا ما أردنا أن نمد هذا الخط من أنفسنا نحو المستقبل تصبح المشكلة أكثر صعوبة لأنه فى خلال نصف المليون سنة الأخيرة تمكن نوعنا الإنسانى من عمل كل الملاءمات اللازمة باستخدام ذهنه بدلاً من استخدامه لجراثيم الوراثة (الجينات genes وكان هذا التغيير سببًا فى ظهور كثير من هذه التغييرات الجديدة فى مظهر التطور مما يجعل أى تنبؤ بما سيحدث فى المستقبل ضربًا من ضروب التخمين .

ويتضح من جميع ما وقفنا عليه من معلومات حتى الآن أن أجدادنا

البعيدين كانوا قردة مذنبين ، ويستطيع من يغضبهم هذا القول[٦] أن يجدوا بعض العزاء ، إذا أكدنا لهم أن مؤسسى فرع عائلتنا البشرية قد تلقوا تعليمهم فى أعلى فروع الأشجار . كانوا فى الغالب حيوانات صغيرة الحجم ، تتراكض فوق فروع الأشجار على قوائمها الأربع كما تفعل القردة الحديثة وتثب من غصن إلى غصن ، وقد بسطت ذراعيها ورجليها على استعداد لتقبض على أى شىء بأى واحدة من اليدين والقدمين . وبالرغم من أنه يرجح أنها كانت ذات ذنب فإنها لم تستخدمه فى أرجحة نفسها . فإن أرجحة القردة بوساطة ذيولها خاص بقردة الدنيا الجديدة ، وهى بعيدة عن الفرع الذى انحدرت منه العائلة البشرية فإذا قرأت فى أى وقت من الأوقات كتابا من كتب الأسفار يذكر فيه مؤلفه أنه رأى قردة أفريقية أو آسيوية تفعل ذلك فمن حقك أن تنقل ذلك الكتاب من بين كتب الأسفار إلى قائمة القصص الخيالية .

وكانت أولى الخطوات للوصول إلى مرتبة الإنسان هى الخطوة التى بدأت عندها تلك الحيوانات الصغيرة الحجم تتخذ طريقة جديدة فى تنقلاتها . فبدلا من أن تثب من غصن إلى غصن بدأت تطرح نفسها من واحد إلى آخر كما يفعل أحد الرياضيين بحلقات (العقلة) . ونتج عن ذلك تغييرات مهمة فى الجسم كانت بكل تأكيد الأساس لأكثر التطورات التى ظهرت فيما بعد فى تركيب الجسم الإنسانى ، فعند الأرجحة من غصن إلى غصن يتعلق الجسم من الذراعين ، وبهذا يكون فى حالة تختلف تمام الاختلاف عن الحالة التى يكون عليها جسم الحيوانات التى تمشى على أربع ، وقد نجم عن ذلك سلسلة من

---

(٦) نحن ممن يغضبهم هذا القول وقد عرضناه فقط لبيان مدى التضارب فى النظر إلى مسألة الخلق عند بعض علماء الغرب.. ونحن لا نؤمن إلا بما جاء فى القرآن (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم). الآية (التين).

التعديلات فى تركيب الجسم ، إذ أصبحت القامة أقصر من ذى قبل . وأكثر اكتنازاً ليتيسر تأرجحها مسافات طويلة وهى متعلقة بالذراعين مثل جسم ثقيل معلق فى نهاية خيط . كانت الأحشاء ثابتة فى أماكنها بوساطة عضلات البطن التى تشبه خيط (المقلاع) فأخذ الحوض على عاتقه القيام بمهمة حمل الأحشاء ، وأصبح أعمق مما كان قبل ذلك وأكثر استدارة . أما مفاصل الكتف التى لم يكن لها من قبل إلا قدرة محدودة على الدوران الحر ، كما نرى ذلك فى القردة فى الوقت الحالى ، فقد أصبحت أكثر ليونة حتى صار لها هذا النوع من المفاصل التى تجعل فى مقدور الإنسان فى الوقت الحالى رمى الكرة كما نرى فى لعبة كرة (البيزبول). انتهى كلام رالف لنتون.

تعليق على رأى رالف لنتون

وهكذا عزيزى القارئ يؤكد كتاب الغرب ما سبق أن قلناه بدءاً من أن الإنسان لا يعرف نفسه مع أنها أقرب الأشياء إليه .. فقد تدلى به فكره كما رأينا فى كتاب شجرة الحضارة حتى رضى لنفسه أن ينحدر من سلالة القرود ثم راح يلتمس من التحليلات ما يحاول به أن يؤكد صحة رأيه هذا .. تعصبا وجهلا ..

ونحن نلتمس العذر لرالف لنتون وغيره ممن أخطئوا الطريق .. ذلك أنهم ممن جرفتهم الحياة المادية فباتوا يتصورون الإنسان مجرد مخلوق شانه حفيدًا للقردة ولم يفتح الله عليهم بما فتح به علينا حين هدانا للقرآن نلتمس فيه النور ونعرف منه الفرق بين الحق والباطل .

(أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) ... (١٢٢ الأنعام) .

كلا يارب .. لسنا ورالف لنتون فى هذا سواء ..

وسوف يرى القارئ فيما سنطرحه عليه عن حقيقة الإنسان فى هذا الكتاب وما يليه من السلسلة ما يدفع هذا الباطل الذى سقط فى بئره كثيرون غير رالف لنتون من أشهرهم شارل دارون صاحب نظرية التطور.

نظرية دارون[٧]

يدعى دارون أن الإنسان تطور من سلالات حيوانية سبقته كانت القرود آخرها ، فقد قدم دارون رسالة لجيله ورد فيها مايأتى :

« حسبكم أن تدرسوا الطريقة التى تنشئ بها الطبيعة وينشئ بها الإنسان صورًا جديدة من الكائنات الحية فى عالم اليوم ، ليكون لكم من هذا تفسير معقول للطريقة التى بلغت بها الأرض فى غضون تاريخها الماضى الطويل . هذا التعدد العظيم فى نباتها وحيوانها وإنسانها ولغاتها البشرية .. » الخلاصة أن دارون سعى إلى إقناع النوع البشرى بأن جنة عدن مازالت باقية وأننا نحن المقيمين فيها لا نزال قادرين على دراسة طريقة الخلق والرد على السؤال الخاص بكيفية وجود السلالات البشرية .

ويقرر دارون أنه لا يوجد من بين من يعيشون على الأرض من الرجال النساء والأطفال اثنان متشابهان تشابها كليًا ولا تستطيع الطبيعة أن تخرج صورة

---

(٧) شارل دارون (١٨٠٩/١٨٨٢) ولد فى مدينة شوسبرى واهتم بالصيد والكلاب حتى قال له والده يوما : ستكون عاراً على عائلتك وعلى نفسك ولم يفلح فى تعلم الطب فانتقل إلى كمبردج واهتم بالحشرات وتعرف بالعالم النباتى هنسلو واستقر أخيرًا فى مدينة داروِن قرب لندن .

طبق الأصل من أى كائن حى ، وكل ميلاد جديد هو تجربة جديدة فى الخلق .

جعل تشارلز دارون من هذه الحقيقة دعامة تستند إليها نظريته فى التطور كما استند إلى دعامة ثانية هى عامل المنافسة ، فعالم الأحياء يسير على سنة من التنافس لا تتبدل ، وأن جميع الكائنات الحية تنقرض ما عدا الصالح منها للبقاء .

وخرج دارون[٨] من هذا كله أن التطور أو الخلق مازال مستمرًّا فى عالم الإنسان لأن كل طفل يولد فى العالم يحمل معه مجموعة جديدة من السمات الجثمانية والصفات العقلية ، وأن بعض هذه السمات والصفات يرفع من شأن أصحابه ويؤهلهم للفوز فى الكفاح المستمر ، وبعض الصفات يحط من شأن أصحابه، حتى مال من يتصف به إلى الانقراض .

تعليق على رأى دارون

جاء العلم بأكثر من دليل على فساد نظرية التطور ، فالعلم الحديث الذى أشرق على العالم منذ ثلاثة قرون كشف عن عجيب ما صنع الصانع ، كشفه فى

---

(٨) من أهم مؤلفاته الكتب الآتية :

أصل الأنواع – تسلسل الإنسان ومظهر التأثيرات فى الإنسان والحيوان . وتدور فلسفته حول مذهب التطور وقد استعار بعض أفكاره عن فيلسوف طبيعى فرنسى هو (لامارك) . وتتلخص نظريته فيما يأتى :

جميع الأنواع الحيوانية والنباتية الماضية والحالية متسلسلة بطريقة التطور والتعاقب من ثلاثة أو أربعة أصول ، وربما كانت من أصل واحد إذ يقول : (إن المقارنة تذهب بى إلى أبعد من ذلك أى إلى الاعتقاد بأن جميع الحيواناتُ وجميع النباتات تسلسلت من أصل واحد) .

والنوع الإنسانى لم يسلم بحسب نظرية دارون من قانون التطور فهو متسلسل من قرد وسار فى سبيل الارتقاء إلى أن صار كما هو الآن .

بيد أن دارون قرر أنه لا يبحث عن مصدر القوة العقلية .

النبات وهو صنوف لا عداد لها ، وكشفه فى الحيوان وهو أجناس لا حصر لها ، وكشفه فى الإنسان أسمى المخلوقات وأرقاها .

وبرغم ما أثبته العلم الحديث فما زالت هناك فئة ضالة تقول بالخلق والتخلق ، ومن هذه البقية الإنجليزى جوليان هكسلى الذى ألف كتابًا أسماه الإنسان يقوم وحده Man Stands Alone وهو فى ذلك يسير على درب سار عليه جده من قديم فجده توماس هكسلى (١٨٢٥ /١٨٩٥) صاحب دارون وناصره فى القرن الماضى - وقد انبرى لهذا العالم الضال عالم آخر هو كريس موريسون الذى ألف كتاباً أسماه الإنسان لا يقوم وحده Man Does Not Stand Alone أراد بذلك أن يقول إن الإنسان يقوم فى هذه الدنيا ومعه الله . وقد أثبت هذا العالم بأدلة علمية قاطعة فساد الرأى القائل بالخلق والتخلق . وحسبنا أن نذكر ردّ موريسون على هكسلى لما لذلك من مغزى . وكفى .

هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) (٢٩ البقرة)

اختص الله سبحانه الإنسان بالرعاية والعناية فأفرد لبيان خلقه العديد من الآيات فى كتابه الكريم .

والقرآن يعلمنا أن الله قد سخر للإنسان هذا الكون ويسر له الانتفاع به وأخضع له ما فيه من الأرض والسماء وما بينهما[٩] . فما هى قصة هذا الخلق كصفحة فى كتاب خلق الإنسان (الخليفة) ؟ .

إن أول ما خلق الله هو القلم ثم أمره بأن يكتب ما هو كائن وأنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء (ثم السجدة) ولكن قول قتادة : أن السماء خلقت

---

(٩) فى تفسير القرطبى جـ ١ (سورة البقرة ص ٢١٨ وما بعدها) .

قبل الأرض (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) (٢٧ النازعات) ثم قال (والأرض بعد ذلك دحاها) (٣٠ النازعات) وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه فجعله أرضًا وثار منه دخان فارتفع فجعله سماء ، فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ثم قصد أمره إلى السماء فسواهن سبع سماوات ثم دحا الأرض بعد ذلك من مكة .. وكانت إذ خلقها غير مدحوة وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواها ثم الأرض بعد ذلك دحاها .

ومما يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمذانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله عز وجل :

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) (٢٩ البقرة) قال إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين (الأحد والإثنين) فتزلزلت الأرض فأرسل عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) (١٥ النحل) وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين (الثلاثاء والأربعاء) .. (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) (٩ و ١٠ فصلت) .

يقول : من سأل فهكذا الأمر (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) (١١

فصلت) وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين (الخميس والجمعة) وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض (وأوحى فى كل سماء أمرها) (١٢ فصلت) قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومالا نعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً تحفظ الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش ، قال : فذلك حين يقول : (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) (٥٤ الأعراف) ويقول : (كانتا رتقا ففتقناهما) (٣٠ الأنبياء) .

أيام الخلق الستة

أيام أو مراحل (١٠)

إن كلمة يوم كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس أو غروبين متواليين وذلك بالنسبة لسكان الأرض . وإن اليوم وقد تحدد بهذا المعنى يرتبط وظيفيا بدوران الأرض حول نفسها .. وواضح تمامًا أنه من المستحيل منطقيًّا أن نتحدث عن الأيام بهذا المعنى الذى تحدده على حين أن العملية المركبة التى ستؤدى إلى ظهورها أى الأرض ودورانها حول الشمس ، لم تكن قد أنشئت بعد عند أولى مراحل الخلق وذلك بحسب رواية التوراة .

أما إذا رجعنا إلى غالبية ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها – بالتجانس مع ما

---

(١٠) راجع كتاب المؤلف الفرنسى (موريس بوكاى) بعنوان La Bible. Le Coran et La Science الذى ترجم إلى العربية وطبع على نفقة الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز – طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٧.

تعلمنا التوراة به – إن القرآن يقول هو أيضًا بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام ولا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة يوم بالكلمة المعادلة لأكثر المعانى شيوعًا للكلمة العربية . وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة مادمنا نقرأ فى سورة الأعراف الآية ٥٤ (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) .

وقليلة حقًّا ترجمات القرآن أو التعليقات التى تنبه إلى أن كلمة أيام ، فى الواقع ، يجب أن تفهم على أنها تعنى (مراحل) بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق فى أيام فقد كان ذلك يهدف عن قصد إلى استئناف ما كان الكل من يهود ومسيحيين فى فجر الإسلام يعتقد به وذلك تجنبًا لمجابهة اعتقاد منتشر.

الواقع ودون أى رفض مطلق لهذه الطريقة فى الرؤية ، ألا يمكن أن نرى المشكلة عن قرب أكثر وأن تفحص المعانى الممكنة فى القرآن نفسه وفى لغة العصر عامة لتلك الكلمة التى يستمر عدد من المعلقين فى ترجمتها بيوم . (الجمع أيام) .

إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها فى اليوم التالى . أما إذا جمعت فلا تعنى فقط أيام أى وحدات تتكون كل منها من أربعة وعشرين ساعة ، بل تعنى أيضاً دهرًا طويلا أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت . ومن ناحية أخرى فمعنى فترة زمنية التى يمكن للكلمة أن تدل عليه موجود أيضًا فى القرآن .

ففى الآية ٥ من سورة السجدة : (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الآية السابقة على هذه الآية تذكر بالتحديد

الخلق فى ستة أيام . كذلك نجد فى الآية ٤ من سورة المعارج : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

وكون أن كلمة يوم كان يمكن أن تدل على فترة زمنية تختلف تمامًا عن تلك التى نعطيها لمعنى اليوم قد بهر كثيرًا من المفكرين القدامى الذين كانوا لا يملكون بالطبع أى معارف من تلك التى نملكها اليوم عن عدة مراحل تكون الكون . وفى القرن السادس عشر الميلادى ظن (أبو السعود) – بالاستناد إلى دورة الأرض – أن من الواجب تصور تقسيم (مراحل) ليس إلى أيام بالمعنى الذى نفهم عادة بل إلى (نوبات) .

ومن المفسرين المحدثين (يوسف على) سنة ١٩٣٤ فى تفسيره لكل آية تعالج مراحل الخلق يصر على ضرورة اعتبار أن الكلمات التى تفسر فى سياق آخر بمعنى أيام تفسر هنا فى الواقع بمعنى (فترات طويلة) ، أو (عصور) .

وقد أثبت العلم الحديث بشكل قاطع أن مراحل الخلق هذه فترات زمنية طويلة جدًّا .. وهو أمر لا يناقض الآيات التى يتحدد فيها الخلق بستة أيام إذا ما نحن أدركنا أن الآية ٥ من سورة السجدة :

تذكر (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) . كذلك فإن الآية ٤ من سورة المعارج تذكر : (... فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

ولنا أن ننبه إلى أن التوراة تقول إن الله خلق الخلق فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع من بعد العمل وأن على كل يهودى أن يجعل يوم السبت يوم الراحة .. ولكن الآية ٣٨ من سورة (ق) ترد على ذلك ردًّا واضحًا حيث يقول سبحانه وتعالى :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من

لغوب) ، (اللغوب : التعب والنصب) فالقرآن يعلمنا فيما يتعلق بالخلق أن هناك نقاطاً هامة هى :

١ – وجود ست مراحل للخلق عمومًا .

٢ – تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض .

٣ – خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تفصلت بعد ذلك .

٤ – تعدد السموات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ – وجود خلق وسيط بين السموات والأرض .

وبعد أن يعرض موريس بوكاى بعض معطيات العلم الحديث عن تكوين الكون (النظام الشمسى – المجرات – تكوين وتطور المجرات والنجوم والنظم الكوكبية – مفهوم تعدد العوالم) .. إلخ يقول : « .. فإنه لا يوجد على أى حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون . ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن ، على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذى نملك اليوم قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية » .

كذلك يتحدث المؤلف الفرنسى عن علم الفلك فى القرآن فيقول :

« ... إن الإشارات التى وردت فى القرآن من علم الفلك منذ حوالى أربعة عشر قرنًا هى حدث جديد فى التنزيل الإلهى فلا الإنجيل ولا العهد القديم يعالجان ترتيب الكون (باستثناء المفاهيم التى رأينا مجموع عدم صحتها فى رواية التوراة عن الخلق) . أما القرآن فهو ينظر طويلا فى هذا الموضوع ، فما يحتويه هام ، ومالا يحتويه هام أيضًا » . ثم يستطرد فيقول :

وعلى حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين مضيفة صفة الكبر إلى الأولى والصغر إلى الثانى يخص القرآن كلا منهما بفروق غير تلك التى تتعلق بالحجم فيصف الشمس بأنها سراج وهاج والقمر بأنه جرم منير أى أنه ليس مضيئًا بذاته بل هو يعكس الضوء الذى يستقبله من الشمس كما أنه كوكب خامل (ذلك على الأقل بالنسبة لقشرته الخارجية) . لا شىء إذن فى القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين .

وبعد .. هذا بعض ما رأينا توضيحه فى هذا الصدد ، ولو أننا لا نود أن نسترسل مع بوكاى فى تفصيلاته مع النجوم والكواكب والسماء الدنيا والبنية السماوية ومدارى الشمس والقمر وتنقلهما فى الفضاء ، وتعاقب النهار والليل وتوسع الكون وغزو الفضاء ودورة الماء والبحار وتضاريس الأرض والجو الأرضى والكهرباء الجويَّة والظل ... إلخ) حتى لا ينحرف بنا المدار عن فلك حقيقة الإنسان وإنما أردنا بهذه الإشارات التمهيد بوصف خلق الكون الذى وجد الإنسان عليه ليعمره ويسخره لنفعه . ولذا نقف عند هذا الحد حيث يأتى مقام ذكر قصة آدم أبو البشر أو خلق الإنسان .

الباب الثانى

أيها الإنسان من أنت؟

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب ثم قال له كن فيكون)

(٥٩ آل عمران)

«كلكم لآدم وآدم من تراب».

(حديث شريف)

أيها الإنسان .. من أنت ؟

ما حقيقتك ؟ ومن تكون ؟ لو سأل الإنسان نفسه هذا السؤال الواضح البسيط لأعياه الجواب . ذلك أن بعض الناس قد تتداعى إلى أذهانهم إجابات سطحية فجة وتافهة ، فقد يعرف أحدهم نفسه باسمه ونوعه وجنسه وشكله .. وقد يرى غيره أن ذلك التعريف به قصور فيضيف إليه مؤهلاته العلمية وعمله ومحل سكنه وحالته الاجتماعية .. وقد يضيف ثالث معلومات أخرى حتى يستطرد فى سرد القصص توضيحًا وتفصيلا .. ولكن حتى ذلك الثالث الذى يظن أنه شرح فأوفى وجمع فأوعى .. سوف يضحك من نفسه طويلا إذا علم أن الإجابة على ذلك السؤال تقتضى منه أن يدفع من عمره بضع سنوات بحثاً وتفكيرًا :

يقول العقاد فى كتاب له بعنوان (الإنسان فى القرآن)[1] .

(استمع الناس إلى **المادية التاريخية** فقالت لهم إن الإنسان عملة (اقتصادية) فى سوق الصناعة والتجارة تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية فقالت لها إنها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور .

واستمع الناس إلى **الفاشية** فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود وإن أبناء الإنسانية جميعًا عبيد للعنصر السيد والعنصر السيد قبل

---

(١) سبق الإسارة.

ذلك عبد للسيد المختار بغير اختيار.

واستمع الناس إلى **العقلية** فقال لهم قائل منها إن (إنسانيتهم) كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشيء الموجود حقًّا هو الفرد الواحد ، وبرهان وجوده حقًّا أن يفعل ما استطاع من نفع أ وأذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

وغير جديد ما استمعوه من أهل **العقائد الإلهية** عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ومكانه من إخوته فى آدم وحواء . .

سمعوا أنه روح وجسد .. ودنيا وآخرة .. ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء .

وسمعوا أنه إنسانان : إنسان صحيح مقبول .. وإنسان زائف مدخول – صحيح مقبول .. كل من اجتباه مولاه على هداه – وزائف مدخول .. كل من خلقه ونفاه ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ويموت بذنب غيره .. ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ومن إباء أو اختيار.

وسمعوا من **القرآن** عن بنى الإنسان غير ذلك :

فهم متدبرون يستمعون إلى العقل .. كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه .. فالإنسان فى القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله يدين بعقله فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع و (الإنسانية) من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها(نسب واحد ورب واحد ..) .

ومن آياته أن خلقكم من تراب

من بين سور القرآن البالغ عددها مائة وأربعة عشر سورة تحدثت أكثر من سبعين سورة منها عن خلق الإنسان وعن أطوار هذا الخلق المعجز البديع وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر هذه الآيات من كتاب الله :

– (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً) (١ الإنسان) .

– (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)

– (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين.فسجد الملائكة كلهم أجمعون) . (٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ الحجر)

– (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) . (٦٧ مريم)

– سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) . (٣٦ يس)

– (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . (٢٠ الروم)

– (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) . (١١ فاطر)

– (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً) . (٦٧ غافر)

– (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . (٥٥ طه)

– وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه) . (٧ ، ٨ ، ٩ السجدة)

– (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (١٢ ، ١٣ ، ١٤ المؤمنون) .

– (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) . (٢ الأنعام)

– (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) . (٢٦ الحجر)

– (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار) . (١٤ ، ١٥ الرحمن)

– (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) . (١٨٩ الأعراف)

– (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديراً) . (٥٤ الفرقان) .

– (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) . (٥ الطارق)

– (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء) . (النساء)

– (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) . (٢ الإنسان) .

– (قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ،

ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) . (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ عبس)

- (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) . (٧٩ المؤمنون)
- (وقد خلقكم أطوارًا) . (١٤ نوح)
- (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق) .
- (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة) . (٥٤ الروم)
- (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شـهدنا) . (١٧٢ الأعراف) .
- (الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك) . (٧ ، ٨ الانفطار)
- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)

هذه بعض الآيات التى توضح لنا خلق الإنسان ومصادره ومراحله غير أن الله سبحانه وقد خص الإنسان برعايته ينزل فى القرآن آيات أخرى توضح لنا كيف أن الله قد خلق الإنسان متنازعًا بين السمو والإسفاف عنده الاستعداد للترقى .. كذا الاستعداد للتدلى .. والآيات التالية على سبيل المثال أيضاً تبين أن الإنسان فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف :

- (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . (٤ التين)
- (ولقد كرمنا بنى آدم) . (٧٠ الإسراء)
- (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) . (٣٠ البقرة)
- كذلك فإن الآيات التالية على سبيل المثال تقرر أن الإنسان فى الدرك الأسفل من الحطة إذا هو انحدر :

– (أولئك كالأنعام بل هم أضل) . (١٧٩ الأعراف)

– إن الإنسان لظلوم كفار) . (٣٤ إبراهيم)

– (إن الإنسان لربه لكنود) . (٦ العاديات)

– (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) . (٦ ، ٧ العلق)

– (إن الإنسان لفى خسر) . (٢ العصر)

• وقد يذكر الإنسان بالصفتين فى الآية الواحدة :

– (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين) . (٤ ، ٥ التين) .

على أن الآيات التى قصر فيها القول على خلق الإنسان لم تخل مما يوحى بأن أطوار خلق الإنسان السوى هى إعداده لما هو أشرف من حياته الحيوانية عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع ..

* * *

ورد فى مختصر صحيح مسلم – كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم – باب فى ابتداء خلق آدم عليه السلام : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة . فى آخر الخلق .. فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

فكرة خلق الإنسان عند بعض الأمم

ارتبطت فكرة الخلق دائماً بإطار دينى منذ فجر التاريخ – **فى الهند مثلا** :

نجد الأسفار المعروفة بالكتب الفيدية التى نقرأ فيها نصوصا كهذا النص :

« إن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود » .

وفى الصين واليابان نجد نصًّا يقول :

« إن إله السماء هو الذى يصرف الأكوان ويدبر أمور الإنسان » .

وفى تراث الفرس نجد فى عقيدتهم :

« الله هو أسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين وهو أقوى القوى فى عالم الملكوت ومن أسمائه الخلاق .. »

لكن الفكرة عند الفراعنة تبدو أكثر وضوحًا وتفصيلا ونرى ذلك فى القصيدة المسماة قصيدة إخناتون وقد جاء فيها :

« أيها الإله الأوحد ، الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا خالق الجرثومة فى المرأة ، ويا صانع النطفة فى الرجل ، ويا واهب الحياة للابن فى جسم أمه ، ويا من يهدئه فلا يبكى ، ويا من يغذيه حتى فى الرحم ، يا واهب الأنفاس ، يا من ينعش كل ما يصدفه ،وحين يخرج من الجسم فى يوم مولده تفتح أنت فاهه لينطق وتمده بحاجاته ، والفرخ حين يزقزق فى البيضة تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته ، فإذا ما وصلت به إلى النقطة التى عندها تكسر البيضة خرج من البيضة ليغرد بكل ما فيه من قوة – ويمشى على قدميه ساعة يخرج منها – ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا – أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيدًا – إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها وكل ما على الأرض من دابة وكل ما يمشى على قدميه ، وكل ما هو فى العُلاَ ويطير بجناحيه – إنك تضع كل إنسان فى موضعه وتمدهم بحاجاتهم لتحفظ حياة الناس » .

وهذه النماذج الثلاثة من النصوص ليست كل ما لدى الإنسانية مما يبرز أن الفكرة عاشت فى إطار دينى .. ولكنها بعض الحصاد ..

وسوف نمضى بالقارئ عبر صفحات الكتاب لنرى أن تلك النصوص التى ذكرناها كانت مجرد إشارة لإرهاصات الفكرة فى خطواتها البدائية ، حتى جاء القرآن الكريم ليقص علّينا القصة صريحة وصحيحة .. فتبارك الله أحسن الخالقين .

آدم أول الناس والكعبة أول بيت
بدء الإنسانية فى مكة حول البيت العتيق[1]

قال أبو الفتح الشهر ستانى فى صدر كلامه عن (آراء العرب فى الجاهلية الجزء الثالث من القسم الثانى ص ١٢٢٠ - ١٢٢١ من كتاب الملل والنحل) .

« ... وقبل أن نشرع فى مذاهبهم نريد أن نذكر حكم البيت العتيق - حرسه الله تعالى - ونصل بذلك حكم البيوت المبنية فى العالم ، فإن منها ما بنى على الدين الحق قبلة للناس ، ومنها ما بنى على الرأى الباطل فتنة للناس » .

وقد ورد فى التنزيل : (إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين) (٩٦ آل عمران) . وقد اختلفت الروايات فى أول من بناه : قيل : إن آدم - عليه السلام - لما أهبط إلى الأرض ، وقع إلى سرنديب من أرض الهند ، وكان يتردد فى الأرض متحيرًا بين : فقدان زوجته ، ووجدان توبته ، حتى وافى حواء - عليها السلام - بجبل الرحمة من عرفات وعرفها ، وصار إلى أرض مكة ، ودعا وتضرع إلى الله تعالى ، حتى يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ، ومطافاً لعبادته ، كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور ،

(١) عن عجالة فى تاريخ الأديان لمحمد بن فتح الله بدران .

الذى هو مطاف الملائكة ، ومزار الروحانيين فأنزل الله تعالى عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور ، فوضعه مكان البيت ، وكان يتوجه إليه ، ويطوف به .

ثم لما توفى ، تولى وصيه « شيث » عليه السلام بناء البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور ، حذو القذة بالقذة .

ثم لما خرب ذلك بطوفان نوح – عليه السلام – وامتد الزمان حتى غيض الماء ، وقضى الأمر ، وانتهت النبوة إلى إبراهيم الخليل – عليه السلام – بنى مع إبراهيم ابنه إسماعيل ذلك البيت ، وذلك قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (١٢٧ البقرة) .

وهكذا : كان مسقط رأس الإنسانية فى « مكة » البلد الحرام ، وحول « الكعبة » بيت الله الحرام فى قلب بلاد العرب .

وهنا نسل « آدم » عليه السلام ، وهنا دبت السلالة الأولى لجميع الأنام ، وهنا تربت الأصول الأولى للرسول الخاتم سيد ولد آدم ، وهنا بقى العرب حتى بعث فيهم نبى الإسلام : (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٣٣ التوبة) .

« آدم » أول الناس فى أرض الله ، و « الكعبة » أول بيت للناس وضعه الله ، وهكذا يتعبد أول خلفاء الله ، فى بيت الله .. ثم فرض الله على الناس جميعًا حج بيته هذا ، من استطاع إليه سبيلا .

(إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) . (آل عمران ٩٦ – ٩٧) .

وقد خص الله هذا البيت بالشرف والكرامة ، وأضافه إلى نفسه ، فكان : بيت الله ، والبيت الحرام ، والبيت العتيق ، والبيت المبارك ، وهدى للعالمين .

كما خص « مكة » بالفضل والرعاية ، لأنها بلد بيته ، ومهبط وحيه ، ومنبت خاتم رسله .. فأقسم بها ، وتكفل سبحانه بأمنها ، **وخصها بالعرب أهلا لها ..**

فقال تعالى : (والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ..) (١ – ٣ التين) ، وقال لحبيبه محمد عليه السلام : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد .) (١ ، ٢ البلد) .

وهذا رب العالمين يقول عن البيت الحرام ، ومكة الأمين : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) . (البقرة ١٢٥ – ١٢٩) .

بل لقد أسكن إبراهيم الخليل ولده إسماعيل الذبيح عليهما السلام ، فى مكان هذا البلد الحرام ، وكان قفراً بلقعًا ، لا ماء فيه ولا نبات ولا شجر ، ليقيم إسماعيل وبنوه فيه الصلاة ، وليكون : قبلة للمؤمنين ، وهدى للعالمين ...

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنًا واجنبنى وبنى أن نعبد

الأصنـام، رب إنهن أضللن كثيرًا من النـاس فمن تبعني فإنـه مني ومن عصـانى فإنك غفور رحيم ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . (إبراهيم ٣٥-٤١)

وأخيرًا ، يقول الله سبحانه على لسان الرسول الخاتم والنبى العربى عليه السلام :

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ، وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) . (النمل ٩١ - ٩٣)

قصة بداية الإنسان فى القرآن

فالقرآن يحكى لنا فى سورة البقرة قصة بداية خلق الإنسان واضحة صحيحة .

يقول تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) وجاعل هنا بمعنى خالق ذكره الطبرى عن أبى زروق .. والأرض قيل : إنها مكة ولذلك سميت أم القرى روى عن ابن سابط عن النبى ﷺ قال :

(دحيت الأرض من مكة[٢] . وخليفة أى يخلف من كان قبله من غير الملائكة أو من الملائكة فى الأرض . والمعنى بالخليفة هنا (الخليقة[٣] فى قول زيد بن على) أما فى قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل (آدم عليه السلام) فهو أول رسول إلى الأرض كما فى قول أبى ذر : قلت يا رسول الله أنبيًّا كان مرسلا ؟ قال نعم الحديث .. ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده وكانوا أربعين ولدًا فى عشرين بطناً فى كل بطن ذكر وأنثى وتوالدوا حتى كثروا . (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء) . وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وعاش تسعمائة وثلاثين سنة - هكذا ذكر أهل التوراة - وروى عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة - والله أعلم .

وقيل إن الملائكة لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها فعمموا الحكم بالفساد والمعصية فقال الله لهم : إنى أعلم مالا تعلمون ، وحقق ذلك سبحانه بأن علم آدم الأسماء كلها وكشف للملائكة عن مكنون علم آدم الذى علمه له ويحتمل أن يكون بالإلهام أو بواسطة ملك وهو جبريل ولولا أن الله كشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة :

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر وقيل : أبا محمد . كنى بمحمد خاتم الأنبياء ﷺ قاله السهيلى .. وقيل كنيته فى الجنة أبو محمد وفى الأرض أبو البشر وأصله بهمزتين (أأدم) لأنه أفعل إلا أنهم لينوا الثانية (عن الأخفش) واختلف فى اشتقاقه .. قيل مشتق من الأدمة وهى السمرة واختلفوا فى الأدمة فزعم

---

(٢) يقول علماء الجغرافيا المعاصرون إن مكة هى مركز الكرة الأرضية .

(٣) الخليقة (بالقاف) .

الضحاك أنها السمرة وزعم النضر أنها البياض قلت (القرطبي) والصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال ابن سعيد بن جبير : إنما سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض وإنما سمى إنسانا (لأنه نسى) .. (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا) . ذكره ابن سعيد فى الطبقات وروى السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنوآدم مختلفين ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ، فصعد به فقال الله تعالى له : (أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك) . فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها فقال : (أنت تصلح لقبض أرواح ولده) . فبل التراب حتى عاد طيناً لازباً (يلتصق بعضه ببعض) ثم ترك حتى أنتن (من حمأ مسنون) قال : (منتن) ثم قال للملائكة : (إنى خالق بشرًا[٤] من طين[٥] . فإذا سويته

---

(٤) صورا أو شخوصًا أو جسدًا : وقد ذكر الجسد فى القرآن بلفظه ٤ مرات فقط . فى سور الأعراف وطه والأنبياء و ص :

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدًا) (١٤٨/الأعراف)

(فأخرج لهم عجلا جسدًا له خوار) (٨٨/طه)

(وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٨/الأنبياء)

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب) (٣٤/ص)

(٥) أحصى العلماء العناصر التى يتألف منها جسم الإنسان وقالوا : إن به من الكربون ما يكفى =

ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . فخلقه الله بيده لكى لا يتكبر إبليس عليه . يقول : أتتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه .

فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعًا إبليس ، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : (من صلصال كالفخار) ويقول : لأمر ما خلقت . ودخل من فمه وخرج من دبره فقال إبليس للملائكة لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكنه ، ويقال : إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروا من الخلائق ما يشبهه أن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ؟ قالوا : نطيع أمر ربنا فأسر أبليس فى نفسه لئن فضل على فلا أطيعه ، ولئن فضلت عليه لأهلكنه ، فلمابلغ الحين الذى أراد الله أن ينفخ فيه الروح قال الله للملائكة : فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت له الملائكة : قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله فقال الله له : رحمك ربك ، فلما دخل الروح رجليه قام عجلان إلى ثمار الجنة (خلق الإنسان من عجل) .. وسجد الملائكة أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر .

وروى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض .. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك .. والسهل والحزن والخبيث والطيب » .

= لعمل تسعة آلاف قلم رصاص ، ومن الفوسفور ما يكفى لعمل ألفى رأس عود كبريت . كذلك فى الإنسان حديد وجير وبوتاسيوم وملح ومغنسيوم وسكر وكبريت ، وهى كلها من العناصر التى تتكون منها تربة الأرض) .

وروى أبو نعيم الحافظ فى كتابه عن مرة عن ابن مسعود : أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة فيضعها على كفه ثم يقول : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال مخلقة . قال : يارب ما الرزق ، ما الأثر ، ما الأجل ؟ فيقول : انظر فى أم الكتاب فينظر فى اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله ، ويأخذ التراب الذى يدفق فى بقعته ويعجن به نطفته (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) . وخرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب حفرته .) .. وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقًا من طين وماء مهين .

وذكر ابن سعد فى الطبقات عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (الناس ولد آدم وآدم من التراب) . وعن سعيد بن جبير قال : خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دجناء قال الحسن : وخلق جؤجؤه (صدره) من ضرية) (قرية لبنى كلاب على طريق البصرة وهى إلى مكة أقرب) . وعن ابن مسعود قال : إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض من عذبها ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام . فكل شىء خلقه من عذبها فهو صائر إلى الجنة، وإن كان ابن كافر، وكلّ شىء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار، وإن كان ابن تقى ، فمن ثم قال إبليس (أأسجد لمن خلقت طيناً) لأنه أتى بالطينة .

وعن عبد الله بن سلام قال : خلق الله آدم فى آخر يوم الجمعة . وعن ابن عباس قال : لما خلق الله آدم كان رأسه يمس السماء – قال – فوطده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعًا فى سبعة أذرع عرضًا . وعن أبى بن كعب قال : كان آدم عليه السلام طوالا جعدًا كأنه نخلة سحوق . وعن ابن عباس – فى حديث فيه طول – وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجليه ، وكان آدم حين أهبط تمسح رأسه السماء ونفرت من طوله دواب البر

فصارت وحشاً من يومئذ ، ولم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، وتوفى على ذروة الجبل الذى أنزل عليه ، فقال شيث لجبريل عليهما السلام : (صل على آدم) فقال له جبريل عليه السلام : تقدم أنت فصل على أبيك وكبر عليه ثلاثين تكبيرة . فأما خمس فهى الصلاة وخمس وعشرون تفضيلا لآدم . وقيل كبر عليه أربعًا فجعل بنو شيث آدم فى مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بنى قابيل وكان الذين يأتونه ويستغفرون له من بنى شيث وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستًا وثلاثين سنة .. (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فأما الأجل الأول فالإقامة حتى الموت وقد علم الإنسان أنه مقيم بالدنيا حتى يأتى أجل الموت أما الأجل المسمى عنده فهو لم يعلمنا الله إياه وهو أجل القيامة .. (وعنده علم الساعة) .

أما قوله تعالى فى سورة الأعراف :

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) . (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ الأعراف) .

فهذه آية مشكلة تكلم العلماء فى تأويلها وأحكامها فقال قوم : إن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض وأنه تعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها به وفى الحديث عن النبى ﷺ غير هذين القولين وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم .. روى مالك فى موطئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم ثم

مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : (خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) . فقال رجل ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار) . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد . لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبدالله بن مسعود وعلى بن أبي طالب وأبي هريرة رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم .

وروى الترمذى وصححه عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها (من ذريته) إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل رجل منهم وبيصًا من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : يارب من هؤلاء قال : (هؤلاء ذريتك) فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أى رب من هذا ؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، فقال : رب كم جعلت عمره قال : ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلمّا انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة .. قال : أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته .

وفى غير الترمذى : فحينئذ أمر بالكتاب والشهود . **وروى عن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال** : (أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من

الرأس) وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره . فأقروا بذلك والتزموه وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل فشهد بعضهم على بعض . قال أبي بن كعب وأشهد عليهم السموات السبع فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد . وقال يحيى بن سلام : قال ابن عباس فى هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم فى صلب آدم عليه السلام وسمى ذلك اليوم بيوم الميثاق .

* * *

بدء الخلق فى رأى علماء الفلك وطبقات الأرض :

رأينا أن علماء الشرع يظهرون من الأحاديث أن العرش هو أول المخلوقات العلوية وأن الماء هو أول المخلوقات المادية وأنه قبل العرش كما رواه أحمد والترمذى ثم خلق الله السموات والأرض أما أول المخلوقات المعنوية فهو القلم وليس هناك دليل يعول عليه فى أصل الكائنات من جهة الشرع .

ويتفق علماء الفلك وطبقات الأرض مع علماء الشرع فى أن الكون حدث وتطور بعد أن لم يكن ولكنهم يختلفون عنهم فى بداية هذا الحدوث وتطوره . ففى حين لا يتحدث الشرع عن ذلك .. نرى (جورج جامبو) فى كتاب تاريخ الأرض يقول : إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً ، إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ مائتى مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض

منذ مائة وعشرين مليون سنة .

والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ ٥٠ مليون سنة فقط .

والله أعلم بحقيقة ذلك[٦] .

---

(٦) العقائد الإسلامية . الشيخ سيد سابق .

ذرية آدم وأطوار خلقها

(مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطوارًا)

(١٣ و ١٤ نوح)

عرضنا فيما سبق لبعض ما قيل فى قصة خلق آدم عليه السلام ، ورأينا كيف أن الله سبحانه خلقه ولم يكن من قبل شيئاً .. ثم خلق من ضلوعه زوجاً له وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء ..

فما هى قصة خلق ذرية آدم وما هى الأطوار التى تمر بها قصة الخلق ؟

هذه بعض آيات من كتاب الله تهدينا السبيل :

– (خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم) . (٣ التغابن)

– (ثم كان علقة فخلق فسوى) . (٣٨ القيامة)

– (خلق الإنسان من علق) . (٢ العلق)

– (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) . (٩ مريم)

– (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) . (٣٣ الحجر)

– (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجًا) . (١١ فاطر)

– (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة) . (٦٧ غافر)

– (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه) . (٢ الإنسان)

– (إنا كل شيء خلقناه بقدر) . (٤٩ القمر)

– (أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . (٥٨ ، ٥٩ الواقعة)

– (إنا خلقناهم من طين لازب) . (١١ الصافات)

– (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث[٧]) . (٦ الزمر)

– (فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق) . (٥ ، ٦ الطارق)

– (والله خلق كل دابة من ماء) . (٤٥ النور)

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . (المؤمنون)

وقبل أن نسترسل فى شرح تلك الآيات واستجلائها نقول إن من آيات الله سبحانه أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً .. ثم هو سبحانه يخلقنا فى بطون أمهاتنا خلقًا منْ بعد خلق فى ظلمات ثلاث .. على عدة أطوار وصور .

وتعال معى عزيزى الإنسان نقرأ القصة من بدايتها ..

« يقول العالم الأمريكى المشهور– بنكس– وهو أحد كبار علماء البيولوجيا – علم الحياة – فى العصر الحديث وهو أيضًا مخترع أقراص منع الحمل : إن السؤال القصير المكون من ثلاث كلمات : كيف يحدث الحمل ؟ هو سؤال خطير حين يعيد الإنسان النظر فيه فهو سؤال عن كيفية تجدد الحياة . وعن

---

(٧) المبيض .. وقناة فالوب .. والرحم .

الخلود وكيفية دوام الإنسان على سطح الأرض .. وما أجهلنا نحن جميعًا عن معرفة أسرار الخلود أو طلاسم الحياة .. وصحيح أن العلم الحديث قد أماط اللثام عن كثير من أسرار الحياة لكن إجابته عن هذا السؤال هى الآن إجابة تحتاج إلى مزيد من البحث – وعلى الرغم من أن (بنكس) انكب على دراسة كيفية حدوث الحمل والعوامل المؤثرة فيه سواء قبل حدوثه أو فى الأيام الأولى منه ، فإنه لما نشر نتيجة دراساته فى مجلد ضخم اعترف فى نهايته اعترافًا صريحًا بأن العلم قاصر جدًّا عن إعطاء الجواب الشامل لهذا السؤال وإن الإنسان عليه أن يعجب أشد العجب لحدوث هذه الظاهرة المتناهية فى التعقيد . ألا وهى الحمل[8] .

ما هى الظلمات الثلاث ؟

(خلقكم من نفس واحدة) (٦/الزمر)[9]

(يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) (٦/الزمر)

قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) : يعنى آدم عليه السلام . (ثم جعل منها زوجها) يعنى ليحصل التناسل .

---

(٨) من مقال طبى للدكتور/أحمد التاجى الأستاذ المساعد بطب الأزهر.
نشر فى مجلة طبيبك الخاص – ونحن هنا نقصد عرض رأى بنكس بالذات لمغزاه .

(٩) قوله تعالى فى الآية ٦ من سورة الزمر :
(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) .

قوله تعالى : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثـلاث .) أى يخلقكم فى بطون أمهاتكم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً . « قتادة والسدى فى تفسير القرطبى » .

وقال ابن زيد : خلقا من بعد خلق : خلقاً فى بطون أمهاتكم من بعد خلقكم فى ظهر آدم . وقيل فى ظهر الأب ثم خلقاً فى بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع . ذكره الماوردى .

« فى ظلمات ثلاث » ظلمة البطن – وظلمة الرحم – وظلمة المشيمة – قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال ابن جبير : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم وهذا مذهب أبى عبيدة .

المراحل الثلاث

ضعف – قوة – ضعف وشيبة

قال تعالى فى الآية ٥٤ من سورة الروم :

(الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

حين يولد الإنسان فإنه يكون ضعيفاً أشد ما يكون حاجة إلى الرعاية والعناية « عامان مثلا للرضاعة – عامان يزحف ولا يقوى على السير – عامان غير قادر على الكلام .. إلخ .. إلخ .

فى حين نرى طفل أى حيوان تصنع فيه العامان الأعاجيب وضعف الإنسان

ملازم له من البداية فهو فى بطن أمه جنين يتغذى عن طريق الحبل السرى ، وقد كفل الله له غذاءه بعد ولادته وقبل نزول اللبن من ثدى أمه .. ففى الأيام الأخيرة من وجود الإنسان جنينًا فى بطن أمه تختزن بعض الغدد أو بعض الخلايا أو الجيوب الداخلية فى جسمه بطريقة لا نعلمها حتى الآن ، بعض الغذاء عن طريق الحبل السرى ولا تعيش عليه بل تدخره وحين يولد الطفل ويقطع الحبل السرى تنشط هذه الغدد أو الخلايا أو الجيوب فتقوم بتغذية الطفل لحين تمكن الأم من إرضاعه ، وهى مدة تصل إلى ثمانية وأربعين ساعة .. والجنين الضعيف فى بطن أمه يسبح فى سائل يحميه فى حركته من أى صدمة أو احتكاك .. وهذا السائل شمعى يحفظ على جسمه الحرارة بديلا عن الملابس كذلك فإن الجهاز التنفسى لدى الطفل يكون غاية فى ضعفه فالرئتان كقطعتى إسفنج رخوتان فلابد من وقاية الطفل من أى تيارات حارة أو باردة قد تودى به – ويحضرنا فى ذلك – أن السيارة إذا كانت جديدة فإنك لا تستطيع السير بها إلا فى حدود سرعة معينة لمسافة معينة بعدها تقوم بتغيير الزيت وتصبح السيارة صالحة للعمل بكامل طاقتها – كذا الإنسان يبدأ ضعيفًا حتى إذا دخل مرحلة الصبا رأيته يرتدى قميصًا واحدًا شمر عن أكمامه وفتح أزراره دون أن يبالى بالطقس حارًا كان أو باردًا .. وبعدها تأتى مرحلة يلزمك فيها مصاحبته صديقاً فالرسول ﷺ يعلمنا ذلك فيقول : « لاعب ولدك سبعًا – وأدبه سبعًا – وصاحبه سبعًا .. لكن هذا الشاب المفتول العضلات تراه إذا تجاوز الأربعين أو الخمسين وقد بدأ الشيب يغزو شعره الفاحم السواد وقد بدأ التعب يعرف الطريق إليه وزارته الأمراض والعلل ثم إذا هو يستعين للسير بالعصا وللقراءة بالعدسات وللهضم بالأدوية .. وهكذا تنصرم الأيام حتى تقوده فى نهاية حياته إلى المقر الأخير ..

فسبحان الخالق القوى المتين الذى يرينا الآيات ويضرب لنا الأمثال لعلنا

نتفكر ونتدبر ، فالإنسان كالنبات يبدأ ضعيفًا ثم يشب ويثمر ثم يهيج فتراه مصفرًّا .. وهذه الحلقات الثلاث بذاتها نراها تتكرر فى الكثير من المخلوقات .. ولكنها تبدو أكثر ما تكون وضوحًا لنا فى ذلك المخلوق المسمى بالإنسان .

خلق الإنسان

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة العلق :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم .) (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ العلق) .

فى هذه الآية يخص الله سبحانه الإنسان بالذكر من دون الخلق [١٠] وهو لا يخصه بالذكر لأن خلقه أكبر فقد قرر سبحانه أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إنما يخصه بالذكر لأن التنزيل إليه كما يقول المفسرون ، فالمناسبة تقتضى أن يذكر الإنسان دون سائر الخلق ، فما نزلت الآيات إلا لتدعو الإنسان إلى عبادة ربه ببيان تفرده بالعبادة وحده ، وأول ما يجذب الإنسان إلى عبادة ربه أن يعلم أنه من خلقه خلقه خلقًا وأنشأه إنشاء ، ولم يك شيئًا قبل أن تمتد إليه يد الله بالخلق والإنشاء .

ولو خص سبحانه من خلقه ما تقوم حياة الإنسان عليه كالأرض التى يعيش عليها أو كالشمس التى لا غنى له عنها لما كان لذلك من الأثر فى نفسه أو من

---

(١٠) من كتاب بحوث فى تفسير القرآن .. سورة العلق ..م. جمال الدين عياد (١٣٨٠هـ /١٩٦١م) .

الدلالة على فضل الله عليه ما لخلق الله له وإنشائه من علق ، فخلق الإنسان وإن كان أقل دلالة على قدرة الله تعالى من خلق السموات والأرض فهو أعظم دلالة على عظيم فضله وموفور نعمه على الإنسان ، وبيان فضل الله على العباد أدفع للعبادة من بيان قدرته الفائقة ، فالعبادة شكر للنعمة واعتراف بالفضل وتقدير للجميل ، ومن ثم كان ذكر الإنسان وبيان خلق الله له أنسب للوقت وأصلح للمناسبة ، مناسبة الدعوة إلى عبادة الرب تعالى ببيان جدارته بالعبادة وحده .

الخلق من علق

من أى شيء خلقه ؟

النطفة أول أطوار الجنين :

بينما يقرر سبحانه وتعالى فى سورة العلق أنه خلق الإنسان من علق يقرر فى آيات أخرى من القرآن أنه خلق الإنسان من نطفة ، إذ يقول تعالى : (من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره) ويقول : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) وواضح من هذه الآيات أن النطفة أول أطوار الجنين وأن العلقة تالية لها وهى حقيقة أشرنا إليها فى هذا المقام ، لأنه قد يتبادر إلى الأذهان من قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) أن العلقة أول أطوار الجنين ، من ذلك قول ابن كثير فى هذه الآية التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علق ، وهذا ما نحب أن ننفيه فالنطفة سابقة للعلقة كما قرر سبحانه فى غير آية من كتابه .

وقد يتساءل القارئ الآن لماذا قرر سبحانه أنه خلق الإنسان من علق مع أن النطفة أول أطوار الجنين . لماذا رد سبحانه الإنسان إلى العلقة دون النطفة ؟

وجواب هذا السؤال يتضح إذا علمنا الغاية التى يهدف إليها سبحانه من هذه الآية فالقصد كما سنبيّن بعد — هو بيان قدرة الله الفائقة وعظيم فضله .

وهى غاية تتحقق إذا رد سبحانه الإنسان إلى العلق كما تتحقق إذا رده إلى النطفة ، فالفرق بينهما ليس بشىء بالنسبة للإنسان الذى ينتهى إليه أمرهما بقدرة الله وإرادته ، بحيث يكون خلق الإنسان دليلا على قدرة الله الفائقة سواء فى ذلك أن يقول خلق الإنسان من علق أو يقول خلق الإنسان من نطفة ، فالذى يخلق الإنسان من علق لن يعجز عن خلقه من نطفة .

ومثل ذلك كمثل المسافة بين سطح الأرض وقمة الجبل فهى ليست بشىء إلى جانب المسافة بين الأرض والقمر مثلا ، بحيث يكون إطلاق الصاروخ إلى القمر دليلا على التقدم العظيم الذى أحرزه الإنسان فى ميدان العلم ، سواء فى ذلك أطلقه من قمة الجبل أو من سطح الأرض مباشرة ، فالذى يطلق الصاروخ إلى القمر من قمة الجبل لن يعجز عن إطلاقه من سطح الأرض .

سيان إذن أن يرد سبحانه الإنسان إلى العلق أو يرده إلى النطفة مادام القصد بيان قدرته الفائقة وعظيم فضله فهى غاية تتحقق برد الإنسان إلى أى منهما ، كما يتحقق الأصل العربى أو القرشى للرسول برده — عليه السلام — إلى جده عبد المطلب أو إلى جده عبد مناف فكلا الجدين عربى قرشى .

فـالغاية التى يهدف إليها سبحانه من هذه الآيـة تتحقق بذكر العلق كما تتحقق بذكر النطفة بحيث يكون المعنى صحيحاً بذكر أى منهما ، لكن اختيار العلق دون النطفة لابد أن يقوم على أساس فنى أو لفظى .

وقد اختار سبحانه العلق ليكتمل التناسق الفنى والموسيقى اللفظية فى مطلع السورة : « خلق » و « علق » فاصلتان متحدتان فى الوزن والقافية وفى حرفين من ثلاثة حروف فلا يختلفان إلا فى حرف واحد وبهذا التقارب عبر سبحانه عن

المعنى المراد بلفظ جميل يطرب الأذن برنينه الموسيق .

والقصد كما قال الإمام أبو عبد الله الخطيب – هو التوفيق بين الألفاظ فى أصواتها وموسيقاها مع صحة المعانى وإلى هذا الرأى يذهب أبو السعود فى تفسيره .

الإنسان بين أصله المباشر وأصله البعيد :

التراب أصل الإنسان البعيد :

ومن الملاحظات الجديرة بالتعليق فى هذا المقام ما قرره سبحانه من أنه خلق الإنسان من طين أو من تراب باعتبار التراب أصل الطين أو من صلصال باعتبار الصلصال صورة من الطين .

إذ يقول تعالى فى سورة السجدة : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) (٧ ، ٨ السجدة) .

ويقول فى سورة فاطر : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) ويقول فى سورة الرحمن : (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) .

وواضح أن هذه الآيات وأمثالها من كتاب الله تتحدث عن خلق الإنسان الأول الذى لم يضمه رحم أو تحمله أنثى ، يؤكد ذلك قوله تعالى فى سورة ص : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) .

فالبشر المقصود فى هذه الآية هو آدم عليه السلام إذ أُمرت الملائكة أن تسجد له ولم تؤمر أن تسجد لغيره من الناس .

والآيات التى تقرر خلق الناس من تراب إنما تقرر ذلك باعتبار أن جدهم الأول آدم عليه السلام مخلوق من تراب ، أما الأصل المباشر لبنى آدم فليس هو

التراب وإنما هو الماء المهين أو النطفة ، الأمشاج أو البويضة الملقحة بلغة العلم فى العصر الحديث .

والأحاديث التى استشهدنا بها على خلق الإنسان من طين تشير إلى أن المقصود بالإنسان هو الإنسان الأول وأن سلالته أو نسله هم الذين خلقوا من الماء المهين ، فذلك أصلهم المباشر والتراب أو الطين أصلهم البعيد .

ورد الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع :

ومما يلفت النظر فى الآية أيضاً ورود الإنسان بالمفرد والعلق بالجمع فالعلق جمع علقة ، وإنما قال من علق على الجمع لأن الإنسان فى معنى الجمع كما يقول المفسرون ، فالإنسان فى قوله تعالى : (خلق الإنسان من علق) هو الإنسان فى قوله تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) وفى قوله (إن الإنسان لفى خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لم يقصد به تعالى إنسانًا بعينه وإنما قصد الإنس جميعًا فكلهم خلق من علق .

معنى العلق :

العلق كما قدمنا جمع علقة ، وقد ذهب المفسرون على اختلافهم قديمهم وحديثهم إلى أن العلق هو الدم الجامد ونقلت عنهم الترجمات الإنكليزية للقرآن هذا التفسير فجعلت الكلمة الإنكليزية clot ترجمة للعلق فى هذه الآية والاسم المشتق منها وهى كلمة تعنى الدم الجامد الذى فسر به المفسرون عندنا بالعلقة .

تفسير العلقة بالدم الجامد يتعارض مع علم الأجنة .

وتفسير العلقة بالدم الجامد تسمح به اللغة ولا يسمح به الطب أو علم الأجنة خاصة ، فإذا استشرت قاموسًا من قواميس اللغة على اختلافها وجدت الدم

الغليظ أو الجامد من معانى العلقة ولكن الحقائق الثابتة فى علم الأجنة لا يمكن أن تفسر العلقة بالدم الجامد أبدًا . فالعلقة كما قرر القرآن فى آيات أخرى هى طور من أطوار الجنين يعقب النطفة أو البويضة الملقحة ويسبق المضغة فهى ثانى أطوار الجنين . والثابت أن الطور الذى يعقب تلقيح البويضة يتصف أول ما يتصف بظاهرة الانقسام cleavage

العلقة فى ضوء علم الأجنة :

ولئن كنا نفتقد المعلومات عن انقسام البويضة الإنسانية فإن انقسام البويضة فى الثدييات عامة وفى فصيلة من فصائل القرود قريبة الشبه بالإنسان خاصة قد كشف لنا الكثير عما يرجح حدوثه فى الإنسان .

انقسام البويضة الملقحة :

فمن دراسة لويس وهارتمان (١٩٣٣) لفصيلة Macacus rehesus – وهى فصيلة من القرود كبيرة الشبه بالإنسان – يتبين لنا – كما هو واضح من شكل (١) . أن البويضة الملقحة تنقسم إلى خليتين خلال أربع وعشرين ساعة من وقت انطلاق البويضة من المبيض ovulation ثم إلى ثلاث فأربع ثم خمس فست فسبع فثمان ، ويستمر الانقسام كذلك حتى تصبح البويضة الملقحة حول الساعة السادسة والتسعين مركبة من ستة عشر خلية ويطلق عليها فى هذه المرحلة من مراحل النمو اسم التوتة morula لما بينها ككتلة من الخلايا المتراصة بعضها فوق بعض وبين ثمرة التوت من شبه .

وصول الجنين إلى فراغ الرحم :

وعند هذه المرحلة يكون الجنين قد وصل إلى فراغ الرحم فى شكل مجموعة من الخلايا المركزية inner cell mass محاطة تمامًا بدائرة من الخلايا سيطلق عليها فيما بعد اسم التروفو بلاست Trophoblast ويحيط بهذه الدائرة غشاء يطلق عليه زونا بللوسيدا zona pellucida وهو الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلا .

وبعد وصول التوتة morula إلى الرحم تمر بتغيرات تنقلها إلى طور جديد . إذ أن سائلا من فراغ الرحم ينفذ إلى الجنين من خلال الغشاء المعروف بالزونا بللوسيدا والخلايا الخارجية التى سيطلق عليها اسم التروفوبلاست ، ويملأ السائل النافذ من الرحم الفراغات الموجودة بين خلايا الجنين المركزية والخلايا الخارجية ، وبازدياد كمية السائل النافذة من الرحم إلى الجنين تتكون فى الجنين فجوة cavity تسمى البلاستوسيل blastocoele وتزاح مجموعة الخلايا المركزية إلى جانب من الجوانب فتلتصق بالجدار الداخلى للخلايا الخارجية التى تنضم إذ ذاك وتسمى التروفوبلاست ، وفى هذه المرحلة يسمى الجنين بلاستوسيت .blastocyst

وفى هذا الوقت على وجه التقريب يختفى الغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلا والذى عرفناه باسم زونا بللوسيدا . ليسمح للخلايا التروفوبلاست بالالتصاق بجدار الرحم بعد أن كان الجنين يتحرك بحرية فى قراره المكين ، ويحدث التصاق الجنين هذا أو غوصه فى جدار الرحم فى منتصف اليوم الثامن من عمر الجنين على وجه التقريب ، فأصغر ما اكتشف من أجنة البشر وجد فى اليوم الثامن من عمره فى أول عهده بمرحلة الغوص فى جدار الرحم .

وتنقسم مجموعة الخلايا المركزية إلى طبقتين طبقة سميكة علوية (اكتودرم)

وطبقة رقيقة سفلية (اندودرم) وتتكون فجوة وحويصلة (فجوة الأمينون) والحويصلة الصفراوية ، وتتكون فيما بعد طبقة ثالثة من الخلايا هى طبقة الميزودرم ، ومن هذه الطبقات الثلاث التى تميزت (الاكتودرم والأنبدودرم والميزودرم) سوف تتكون فيما بعد أعضاء الإنسان المختلفة ، فتنشأ من كل طبقة مجموعة معينة لأعضاء الجنين ، وتتم تغذية الجنين فى أول الأمر بطريقة الانتشار الغشائى :

ثم لا يلبث أن يتكون فى اليوم العشرين من حياة الجنين جهاز دورى بسيط .

أطوار الجنين :

ويعتبر بعض علماء الأجنة الفترة السابقة لتكوين الجهاز الدورى البسيط الذى أشرنا إليه آنفاً والتى تبلغ غايتها بغوص الجنين فى جدار الرحم ، وتستنفد الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب يعتبرونها المرحلة الأولى من مراحل نمو الجنين .

والمرحلة التالية لها تبدأ ببداية الأسبوع الرابع تقريبًا وتنتهى بنهاية الأسبوع الثامن وتتميز هذه المرحلة بالنمو السريع والتميز الذى تتكون به جميع الأجهزة والأعضاء الأساسية للجسم وتتضح به الملامح الرئيسية .

والمرحلة الأخيرة تمتد من نهاية الأسبوع الثامن إلى المولد وتتميز هذه الفترة بسرعة النمو المذهلة أكثر مما تتميز بتخلق الأعضاء والأجهزة المختلفة .

على أن هذه التقسيمات لا تعنى بحال أن كل مرحلة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى ، إذ أن هذه المراحل يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها إلى بعض .

* * *

ومن هذا العرض الموجز لأطوار الجنين يتبين لنا أن ما سماه القرآن بالمضغة لابد أن يقابل المرحلة الثانية من المراحل الثلاثة التى ذكرناها آنفاً ، وهى المرحلة التى يتخلق فيها الجنين أو تتكون أجهزته وأعضاؤه ، ذلك أن المضغة قد وصفها القرآن بأنها مخلقة وغير مخلقة ، فهى الطور الذى يتخلق فيه الجنين فتتكون أعضاؤه وأجهزته المختلفة ، أولا يتخلق كالسقط الذى قد يحدث من شذوذ فى نمو الجنين كأن يغوص فى غير المكان الطبيعى من جدار الرحم فلا يتخلق ويموت وتنزف الأم نزيفًا شديدا ، وهذه الحالات الأخيرة حالات شاذة يبلغ فيها الجنين مرحلة التخلق ولا يتخلق أولا يكتمل تخلقه فيولد ناقصًا غريب الخلقة .

النطفة والعلقة تقابلان الطور الأول :

وحيث إن النطفة والعلقة سابقتان للمضغة كما قرر القرآن ، فلابد أن تكونا مقابلتين للمرحلة الأولى من المراحل الثلاثة التى ذكرناها آنفاً والتى تبلغ غايتها بغوص الجنين فى جدار الرحم ، وتستنفد الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة الجنين على وجه التقريب .

تركيب العلقة :

وواضح أن الجنين فى هذا الطور الذى سماه القرآن علقة ليس من الدم الجامد فى شىء كما ذهب المفسرون وإنما هو مجموعة من الخلايا تميزت إلى صفين علوى وسفلى (اكتودرم وأندودرم) بالإضافة إلى فجوة الأمنيون والحويصلة الصفراوية وتركيب الخلايا التى تكون العلقة مختلفة تمام الاختلاف عن تركيب الدم الجامد ، فهى خلايا نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة التى تمثل

الخلية الإنسانية الأولى ، والبويضة الملقحة وما نشأ عنها من خلايا تتركب من نواة وسيتوبلازم بصفة أساسية .

تركيب الدم السائل :

أما الدم السائل فيتكون من سائل أصفر اللون باهت يعرف بالبلازما تسعة أعشاره ماء وعشره مواد غذائية مهضومة ، بالإضافة إلى كميات قليلة من مخلفات عضوية .

وهذا السائل المعروف بالبلازما يحوى عددًا كبيرًا من خلايا دقيقة تعرف بالكرات الدموية الحمراء ، وهى خلايا تلاشت أنويتها واحتوى سيتو بلازمها على مركب أزوتى يحتوى على الحديد يعرف بالهيموجلوبين ، ويعزى إليه لون الدم الأحمر ، وتنتشر هذه الخلايا بكثرة فى دم الإنسان بدرجة أن المليمتر المكعب الواحد من الدم يحوى خمسة ملايين من هذه الكرات .

وبالإضافة إلى هذه الكرات الحمر تحوى البلازما عددًا آخر من الكرات البيض وهى خلايا مجهرية ذات نواة وشكل بعضها متغير باستمرار ، إذ تخرج منها زوائد تتحرك بواسطتها جميعًا كما تفعل الأميبا ، وهى توجد فى الدم بنسبة أقل من الكرات الحمر ، إذ يقابل كل خمس مئات من الكرات الحمر كرة واحدة بيضاء تقريبًا .

والدم الجامد يتكون من خيوط دقيقة جدًّا تسمى خيوط الفبرين ، كانت فى الأصل مادة بروتينية ذائبة فى الدم ثم تحولت نتيجة لعمليات كياوية إلى هذه الخيوط التى تحصر بينها فى شكل شبكة – الكرات الدموية السابقة الذكر وعددًا كبيرًا من الصفائح الدموية المتهدمة .

وواضح من الوصف الذى قدمناه للدم السائل والدم الجامد أن الجنين فى

المرحلة التى سماها القرآن بالعلقة ليس من الدم الجامد أو السائل فى شىء بل إن الجنين حتى الأيام الأخيرة من طور العلقة لم يكن يحوى خلايا دموية على الإطلاق فالراجح أن الخلايا الدموية لا تتكون طلائعها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين .

ومن أجل هذا نرفض ما ذهب إليه المفسرون من أن العلقة ، دم جامد ونرفض ترجمة العلقة بالكلمة الانجليزية clot التى تقابل الدم الجامد فى العربية وحجتنا فى هذا الرفض تعارض هذا التفسير مع المفهوم الطبى لما يقابل العلقة من مراحل نمو الجنين .

العلقة فى رأينا :

والعلقة – فى رأينا – هى ما يعلق بالشىء ويتشبث به وهو تفسير تسمح به اللغة ويسمح به علم الأجنة فى وقت واحد .

فاللغة لم تجعل العلقة وقفاً على الدم الجامد بل جعلت من معانيها العلوق والتشبث الذى أشرنا إليه آنفاً ، يقال علق الصيد فى الحبالة ، وعلق الصائد إذا علق الصيد فى حبالته، وعلق دم فلان بـزيد إذا كـان زيد قـاتله، وأعلق ظفره بالشىء إذا أنشبه ، وعلق الشوك بالثوب وتعلق به إذا نشب به واستمسك ، ومن معانى العلق شىء أسود يشبه الدود يكون بالماء ، فإذا أشربته الدابة يعلق بحلقها ، والواحدة علقة ، ومنه قولهم كل بيع أبقى علقة أى شيئاً يتعلق به البائع – فهو باطل .

وكذلك تسمح الحقائق الثابتة فى علم الأجنة بتفسير العلق بما يتشبث ويستمسك بشىء آخر ، فكما قدمنا فى العرض الموجز لأطوار الجنين تمكث البويضة الملقحة حرة فى فراغ الرحم حتى منتصف اليوم الثامن على وجه

التقريب ، وإذ ذاك تعلق بجدار الرحم ثم تغوص فيه ، وتسمى كتب الأجنة هذا العلوق والغوص باسم خاص وتجعله طورًا من أطوار النمو ، ومن ثم فالعلقة عندنا هى هذا الطور الذى يعلق فيه الجنين بجدار الرحم ثم يغوص فيه ، ويبدأ هذا العلوق - كما قدمنا - فى منتصف اليوم الثامن ثم يبدأ الغوص فى جدار الرحم ويستمر حتى يبلغ الغاية قبيل اليوم العشرين ، وبهذا ينتهى طور العلقة ويبدأ طور المضغة ، الذى يستمر حتى اليوم الستين من عمر الجنين.

العلقة فى الحديث :

والباحث فى معنى العلقة عندما يصل إلى هذه المرحلة من البحث يستوقفه حديث وارد فى الصحيح فيه ما يخالف ما انتهينا إليه ، فلقد روى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ... إلخ .

ومدلول هذا الحديث أن مرحلة العلقة تبدأ من اليوم الأربعين من حياة الجنين وتستمر حتى اليوم الثمانين ، وأن مرحلة المضغة تبدأ من اليوم الثمانين وتستمر حتى اليوم العشرين بعد المائة ، وهذا يخالف ما انتهى إليه البحث فيما قدمناه إذ قلنا إن مرحلة العلقة تبدأ فى اليوم الثامن وتنتهى قبيل اليوم العشرين وأن مرحلة المضغة تبدأ فى اليوم العشرين وتنتهى فى اليوم الستين.

غير أن القارئ لباب القدر الذى تضمن هذا الحديث سوف يجد المخرج من هذا الإشكال ، فثمة أحاديث أخرى عرضت لهذا الموضوع تخالف الحديث الذى قدمناه فى المتن والسند ، من هذه الأحاديث ما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها

ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك». ومؤدى هذه الرواية أن مرحلة المضغة التي يكون فيها التخلق تبدأ من الليلة الثانية والأربعين لا من اليوم الثمانين كما تقول الرواية الأولى التي أثارت الإشكال.

وقد تنبه النووى فى شرحه لصحيح مسلم إلى هذا الاختلاف أو التناقض بين الروايات ، وحاول أن يبرره بما قاله القاضى وغيره من أن القول فى الرواية الأخيرة ليس على ظاهره ولا يصح أن يحمل على ظاهره ، وأن المراد من تصويرها وخلق سمعها إلى آخره – فيما يرون – أن الملك يكتب ذلك ثم يفعله فى وقت آخر . وقد استندوا فى رأيهم هذا إلى أن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود فى العادة وإنما يقع فى الأربعين الثالثة وهى مدة المضغة .

وهو فهم قدمنا خطأه بما هو ثابت فى علم الأجنة من أن الطور الذى يتميز بالتخلق من أطوار الجنين إنما يقع بين اليوم العشرين والستين ، فالتخلق إذن لا يبدأ فى اليوم الثمانين أو فى الأربعين الثالثة كما قالوا ، وإنما يبدأ منذ اليوم العشرين ولا يكاد يبلغ الجنين اليوم الستين من حياته على وجه التقريب حتى تكون أجهزته الرئيسية قد تكونت طلائعها واكتسب الملامح الرئيسية التى تميزه كإنسان بعد أن كان لا يختلف عن أجنة الحيوانات الأخرى فى كثير.

ونحن لا نذكر هذا لنلوم شراح الحديث على فهمهم هذا ، فلم يكن علم الأجنة قد تقدم أيامهم بالدرجة التى تكشف عن هذه الحقائق ، وإنما ذكرناه لنبين أن القول فى الرواية الثانية للحديث لا يجوز أن يحمل على غير ظاهره لما فى ذلك من تعارض مع الحقائق الثابتة فى علم الأجنة وإن حمله على الظاهر يجعله أقرب إلى هذه الحقائق إذ يفيد أن التخلق يكون فى الليلة الثانية والأربعين ،

أى فى الليلة الوسط مرحلة المضغة على وجه التقريب إذ جعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين كما قدمنا القول .

والحديثان – اللذان وجدنا بينهما ما قدمنا من تعارض – من أحاديث الآحاد ألتى تفيد الظن ولا تفيد القطع واليقين .

والموقف الذى يتخذه علماء الحديث أو علم مصطلح الحديث فى هذا الصدد يتركز فى خطوات ثلاث :

أولا : محاولة التوفيق بين الحديثين المتعارضين ، فإذا أمكن الجمع بينهما فإننا نصير إليه .

ثانيًا : وإذا لم يمكن الجمع حاولنا الترجيح فإذا استطعنا ترجيح حديث على آخر لسبب معقول أخذنا بالراجح وتركنا المرجوح .

ثالثاً : وإذا تعذر الترجيح أمسكنا عن القول وتوقفنا عن الأخذ بالحديثين معًا واعتبرناهما كأن لم يكونا مفوضين الأمر إلى الله عز وجل .

وفيما يتعلق بالتوفيق بين الحديثين لا نجد ما يعيننا عليه ، فالتعارض بينهما واضح وحمل الحديث الثانى على غير ظاهره لا يجوز كما قدمنا القول .

وفيما يتعلق بالترجيح نجد من اليسير علينا أن نرجح الحديث الثانى لما قدمناه من أنه أقرب إلى الحقائق الثابتة فى علم الأجنة فمؤدى هذا الحديث أن الله يبعث الملك ليصور الجنين فى الليلة الثانية والأربعين ، وهى الليلة الوسط من مرحلة المضغة التى يجعل العلم بدايتها فى اليوم العشرين ونهايتها فى اليوم الستين ، والحديث لا يفيد أن بداية التخلق فى الليلة الثانية والأربعين إنما يفيد أن الملك يصور السمع والبصر.. إلخ فى هذه الليلة ، وقد يعنى هذا أن الشكل الخارجى للعين والأذن يتضح فى هذا الوقت وأن بداية التخلق تكون قبل ذلك ولعلها فى اليوم العشرين كما رجح العلم .

وقد قدمت لنا كتب الأجنة صورًا للمضغة فى مراحل التخلق المختلفة وجعلت أمام كل صورة عمر الجنين على وجه التقريب .. والصورة التى تصور الجنين فى اليوم الثالث والأربعين من عمره أى فى الوقت الذى حدده الحديث الراجح عندنا تقريبًا يتضح فيها الشكل الخارجى للعين والأذن واليد والقدم ، بعد أن كانت غير ظاهرة تمامًا فيما سبق من أطوار، وفيها يقترب الجنين من الشكل الإنسانى ، ولعل الحديث يشير إلى هذه المرحلة من النمو الجنينى دون أن ينكر مراحل التخلق السابقة التى انتهت بالجنين إلى هذا الطور . أو لعله يشير إلى مرحلة أخرى لاحقة لهذه المرحلة من مراحل التخلق ، فالصورة التى سجلتها كتب الأجنة وقدرت عمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يومًا على وجه التقريب يزداد فيها اقتراب الجنين من الشكل الإنسانى وتتضح ملامحه الرئيسية بشكل ملحوظ ، وتقديرهم لعمر الجنين فيها بسبعة وأربعين يومًا إنما هو تقدير على وجه التقريب لا التحديد ، وقد يكون عمره فى الحقيقة اثنين وأربعين يومًا أو ما يقرب من ذلك كما أشار الحديث .

ومن هذا الذى قدمناه يتبين لنا أن الحديث الثانى هو الراجح عندنا لأنه يتفق مع ما انتهى إليه علم الأجنة فى هذا الشأن .

وإذا لم يرتض القارئ ترجيحنا هذا فهو فى حل من أن يتوقف عن الأخذ بالحديثين معًا ويعتبرهما كأن لم يكونا ويقف بالبحث عند النتيجة التى انتهينا إليها .

الحكمة فى ذكر الخلق من علق :

والخلق من علق كما أشرنا فى عنوان هذا الفصل – دليل قدرة الله الفائقة وعظيم فضله . وقدرة الله سبحانه تتضح من هذه النقلة المذهلة التى جعلت من

العلق إنسانًا وعلى قدر إدراكنا لهذه النقلة يكون إدراكنا للقدرة الإلهية :

١ – فالعلقة – عندما تعلق بجدار الرحم وتتهيأ للغوص فيه لم يكن يزيد طولها عن جزء من المليمتر فإذا جاءت ساعة المولد بلغ طول الوليد خمس مئات من المليمترات ، ومعنى هذا أن العلقة قد أصبح طولها مثل ما كانت عليه مئات المرات .

٢ – والعلقة التى يبلغ طولها نصف « ملليمتر » لا يمكن أن تقول إنها تزن شيئًا فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلا يزن ٣٢٥٠ جرامًا أو سبعة أرطال على وجه التقريب ، وهى نقلة رائعة لا يمكن أن تصورها الأرقام .

٣ – والعلقة ، بعد هذا غير مخلقة على الإطلاق فهى خالية تمامًا من الأعضاء والأجهزة المميزة للجسم الإنسانى ، فإذا جاءت ساعة المولد أصبحت طفلا تام التخلق له ما نعرف من أعضاء الجسم الإنسانى وأجهزته المختلفة ، ولا يلبث الطفل أن ينضج عقله ويعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فيبعث الطيارة إلى أعلى السحاب ويرسل الغواصة إلى أعماق المحيط ويطلق الصاروخ إلى سطح القمر وهو الذى كان فى أرحام الأمهات علقة لا يبلغ طولها المليمتر الواحد ولا تزن شيئاً أو تعقل أمرًا .

وبرغم ما وصل إليه العلم فى عصرنا الحاضر من تقدم مذهل لايزال تخلق الأجنة أمرًا مذهلا محيرًا للعلماء لا يستطيعون تفسيره أو تعليله ، ولا يزال السؤال قائماً : كيف تميزت الخلية الإنسانية الأولى إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات وغيرها ؟ .

ولقد حاول بعض العلماء حل المشكلة ولكن محاولتهم – فيما نرى تركت المشكلة دون حل ، من ذلك قول وودورث **Woodworth** وماركيس : **Marquis**

(أن الأصل الوراثى لخلايا الجسم المتعددة واحد ، فكلها نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة ، ومن ثم فإن التميز إلى خلايا الأعصاب والعظام والعضلات لابد أن يكون من أثر البيئة وحدها) .

(والبيئة التى توجد فيها الخلية من خلايا الجنين غير البيئة التى يوجد فيها الجنين ككل ، فبيئة الجنين هى الرحم بما فيه من غذاء ودفء ، وبيئة الخلية الواحدة من خلايا الجنين هى مجموعة الخلايا المحيطة بها) .

(وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور تحاط الخلية فى جزء ما من الجسم بمجموعة من الخلايا تختلف عن مجموعة الخلايا التى تحيط بخلية أخرى فى جزء آخر من الجسم) .

(وهكذا تختلف بيئة الخلية فى هذا الجزء عن بيئة الخلية فى ذاك الجزء من الجسم ، وينشأ عن اختلاف البيئتين تميز هذه الخلية إلى خلية أعصاب مثلا وتميز تلك إلى خلية عظام أو عضلات .. إلخ) .

وواضح – كما قدمنا – أن هذه المحاولة تركت المشكلة – التى أريد حلها – قائمة تنتظر الحل ، فلقد دار صاحباها فى حلقة مفرغة : قالا : إن تميز الخلايا يرجع إلى اختلاف بيئاتها واختلاف بيئاتها يرجع إلى تميزها .

وهذا ظاهر مما بين الأقواس مما نقلناه عنهما، فلقد قالا وعندما يأخذ بعض التميز فى الظهور.. دون أن يبينا كيف يبدأ هذا التميز فى الظهور، أو يذكرا أن هذا التميز هو المشكلة التى حاولا حلها، وهكذا دارا – كما قلنا – فى حلقة مفرغة تبدأ بالمشكلة دون حل، وتنتهى بها دون حل أيضًا.

ولئن دل خلق الإنسان من علق على قدرة الله الفائقة فإنه يدل كذلك على فضله العظيم ، فالخلق من أكبر النعم لا ريب . لم يكن الإنسان قبل شيئًا فأصبح

به شيئاً ، وأى شيء ، وقد قدمنا القول فى أن ذكر الخلق فى الدفعة الأولى من القرآن متصل تمامًا بالمناسبة التى نزلت من أجلها الآيات .

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . (٢ /الإنسان)

الإنسان : أى ابن آدم من غير خلاف . من نطفة : أى من ماء يقطر وهو المنى ، وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة يقول **عبد الله بن رواحة** يعاتب نفسه :

ما لى أراك تكرهين الجنة   هل أنت إلا نطفة فى شنة

[الشنة : القربة]

وجمعها نطف ونطاف . أمشاج : أخلاط . ويقال مشجت هذا بهذا أى خلطته فهو ممشوج ومشيج مثل مخلوط وخليط [(١١)] **وقال المبرد** : اختلاط النطفة بالدم . **وقال الفراء** : أمشاج : أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال للشيء من هذا إذا خلط مشيج كقولك خليط وممشوج كقولك مخلوط . وروى عن **ابن عباس** رضى الله عنه قال : الأمشاج : الحمرة فى البياض والبياض فى الحمرة . وهذا قول يختاره الكثير من أهل اللغة .

وعن ابن عباس [(١٢)] أيضاً قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا

---

(١١) القرطبى ص ٦٩١١ تفسير سورة الإنسان . ط دار الشعب – القاهرة .

(١٢) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى والمعنى : « من نطفة قد اختلط فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف فى الرقة والثخن والقوام والخواص تجتمع من الأخلاط وهى العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له .

مرفوعًا ذكره البزار . وروى عن ابن مسعود : أمشاجها : عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان . خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه . قال قتادة : هى أطوار الخلق ، طور علقة ، وطور نطفة ، وطور عظامًا ، ثم يكسو العظام لحماً ، كما قال فى سورة المؤمنين : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين .) الآية .

وقال **ابن السكيت** : الأمشاج : الأخلاط ، لأنها ممتزجة من أنواع ، فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة ، وقال أهل المعانى : الأمشاج ما جمع وهو فى معنى الواحد ، لأنه نعت للنطفة ، وروى عن أبى أيوب الأنصارى : قال : جاء حبر من اليهود إلى النبى ﷺ فقال : أخبرنى عن ماء الرجل وماء المرأة فقال : « ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق ، فإذا علا ماء المرأة آنثت ، وإذا علا ماء الرجل أذكرت . » فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

ويقول **أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى** : فى الجامع لأحكام القرآن .. يقول **الفراء والأخفش** (الماء الدافق) الذى خلق منه الإنسان هو الماء (المنى) المصبوب فى الرحم ، أما الزجاج فيقول من ماء ذى اندفاق وهو ماءان ماء الرجل وماء المرأة لكن جعلها ماء واحدًا لامتزاجها (نطفة أمشاج) وعن عكرمة عن ابن عباس : (دافق) لزج .. (من بين الصلب) : الظهر – ظهر الرجل – (والترائب) : الصدر – موضع القلادة من صدر المرأة .. بين ثدييها . وعن ابن جبير **عن ابن عباس : الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر .. وقال معمر بن أبى حبيبة المدنى : الترائب**

عصارة القلب ومنها يكون الولد ، والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر .. والتربية واحدة الترائب .

وفى التفسير : [١٣] يخلق من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحم والدم، وقاله الأعمش. وفى سورة الحجرات : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : (من بين الصلب) لأنه إن نزل من الدماغ فإنما يمر بين الصلب والترائب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ، وهذه هى الحكمة فى غسل جميع الجسد من خروج المنى . كما أن المكثر من الجماع يجد وجعًا فى ظهره وصلبه لخلو صلبه عما كان محتبسًا فيه من الماء . ونحن إذا تتبعنا النطفة وكيف تصبح مختلطة ، فإننا نقول بتبسيط شديد إن الحمل إنما يحدث عن التقاء الماء (الحيوان المنوى للرجل) بالبويضة للأنثى ، وحين يتم هذا اللقاء يتحد الاثنان فى خلية واحدة ، ثم تنقسم هذه الخلية إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان وست عشرة .. وهكذا لتصبح فى النهاية ملايين الملايين من الخلايا التى تكون الطفل الكامل المستعد لاستقبال الحياة بعد تسعة شهور .

ولكن هذا التبسيط الشديد يحتاج إلى بعض الشرح لعدد من النقاط :

أولا : بويضة الأنثى تنطلق من مبيض السيدة مرة واحدة كل شهر ، وذلك فى منتصف الشهر المطمثى لها (حوالى ١٢ – ١٤ يوماً) من بعد بدء الدورة الشهرية للمرأة وغالباً ما يفرز أحد المبيضين بويضة كل شهر بالتتابع : من المبيض اليمين والشمال أما إذا حدث أن تقابلا مع الحيوانات المنوية فيحدث

(١٣) تفسير القرطبى .

الحمل فى توءمين اثنين أو ثلاثة أو أكثر والبويضة خلية متناهية فى الصغر محاطة بعدة خلايا أخرى أصغر منها لحمايتها وتغذيتها وبعد خروج البويضة من المبيض يلتقطها بوق الرحم وتسير ببطء مع التيار فى البوق فى انتظار مقابلة الحيوان المنوى ليتم الاتحاد بينهما والحمل ، أو ليجرفها التيار إلى الرحم ثم إلى الخارج بدون أن يشعر بها أحد على الإطلاق وبويضة الأنثى قليلة العدد : واحدة فقط كل شهر ثم هى تتحرك ببطء ودلال فى انتظار الذكر ، ولها وسائلها الخاصة فى اجتذاب الذكر بأنزيمات خاصة لها فعل السحر فى هذا المضمار.

وبعكس بويضة الأنثى **فالحيوانات المنوية للرجل** يقدر عددها بالملايين فى كل مرة وهى سريعة الحركة تنطلق بلا هوادة نحو هدفها الأمثل وهو الاتحاد مع البويضة (ماء دافق) ، وفى طريقها للبويضة تلاقى صعابًا كثيرة فى رحلتها الطويلة . فعند الاتصال الجنسى توضع هذه الملايين من الحيوانات فى الجزء العلوى من مهبل الأنثى وهنا تقابلها عقبات مميتة . ذلك أن طبيعة إفرازات المهبل حمضية لا تستطيع الحيوانات المنوية أن تعيش فيها سوى بضع دقائق بالرغم من أن السائل المنوى قلوى الطبيعة ليعادل الحموضة القاتلة فى المهبل .. ولكن معظم الحيوانات تتغلب على تلك العقبات بالسباحة سريعًا إلى أعلى لتجتاز عنق الرحم . ولكى تمر الحيوانات (المهبلية) بعنق الرحم فعليها أن تمر بأهوال أشد وأمر من حموضة المهبل ، فعنق الرحم مبطن بغشاء مخاطى كثير الانحناءات والانثناءات فيما يشبه قصور التيه أو (بيوت جحا) ، وفى هذا التيه يموت كثير من الحيوانات المنوية وهى تحاول إيجاد مخرج ، ولا ينجح فى المرور خلال قناة عنق الرحم إلا ملايين قليلة من تلك الحيوانات المسكينة التى كانت قد بدأت رحلتها منذ دقائق بكل جدية ونشاط . وتخرج الحيوانات التى نجت إلى الرحم نفسه لتقابل هولا جديدًا – فالرحم تجويف يعتبر بالنسبة لهذه الحيوانات

الصغيرة تجويفًا واسعًا جدًّا تتخبط فيه بحثًا عن فتحة ضيقة لبوق الرحم وهى فتحة كرأس الدبوس وبذا تهلك ملايين جديدة فى هذه الرحلة ، ويصل عدد قليل من الحيوانات فى بوق الرحم ويكون عليها أن تسبح فى البوق بعكس اتجاه التيار فيه برغم أنه رفيع وملتو حتى تصل إلى البويضة ، وتتسابق الحيوانات التى وصلت للاتحاد بالبويضة ولكن حيوانًا واحدًا منها فقط هو الذى ينجح فى هذا المضمار فى الوصول إلى هذا القرار المكين ويتحد بالبويضة ، وتنتج خلية ملقحة كاملة تتقاسم لتصبح فيما بعد علقة (الزيجوت) .

أما العلقة : فهى الدم الجامد .. والعلق الدم العبيط أى الطرى وقيل الشديد الحمرة وهى تلتصق بواسطة المشيمة فى جدار الرحم ٤٠ يومًا لتصير مضغة .

والمضغة : هى قطعة اللحم بقدر ما يمضغ ومنه الحديث (ألا وإن فى الجسد مضغة) وهذه الأطوار أربعة أشهر . قال ابن عباس : وفى العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح فذلك عدة المتوفى عنها زوجها – أربعة أشهر وعشر . وروى يحيى بن زكريا بن أبى زائدة حدثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمران : أن النطفة إذا استقرت فى الرحم أخذها ملك بكفه فقال يارب ، ذكر أم أنثى ، شقى أم سعيد ، ما الأجل والأثر ، بأى أرض تموت ؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة ، فينطلق فيجد قصتها فى أم الكتاب فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت فى المكان الذى قدر لها ثم قرأ عامر (يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) . وفى الصحيح عن أنس بن مالك – ورفع الحديث – قال : إن الله قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة . أى رب علقة . أى رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال

الملك : أى رب ذكر أو أنثى شق أو سعيد . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه – وفى الصحيح أيضًا عن حذيفة بن أسيد الغفارى : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث إليها الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول : أى رب أذكر أم أنثى .. » وذكر الحديث .

وفى الصحيح عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « **إن أحدكم – يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد .. » رواه البخارى ومسلم .**

فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأولى فإن فيه : (يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين يومًا علقة ، ثم أربعين يومًا مضغة ، ثم يبعث الله الملك فينفخ فيه الروح) . فهذه أربعة أشهر وفى العشر ينفخ الملك الروح وهذه عدة (المتوفى عنها زوجها) كما قال ابن عباس . سئل الأعمش : ما يجمع فى بطن أمه ؟ قال حدثنا خيثمة قال : قال عبد الله : إذا وقعت النطفة فى الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرًا طارت فى بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يومًا ثم تصير دمًا فى الرحم . فذلك جمعها وهذا وقت كونها علقة (١٤) .

---

(١٤) فترة الحمل تبلغ ٩ شهور عربية أو ١٠ شهور قمرية لاعتبار الشهر القمرى ٢٨ يومًا وهذه الفترة قابلة للعجز والزيادة . وقد اصطلح الأطباء على احتساب فترة الحمل ابتداء من أول يوم فى الحيض السابق للحمل مباشرة مضافًا إليه ٢٨٠ يومًا .

وليس معنى هذا أن المرأة الحامل لابد أن تضع مولودها فى هذا التاريخ بالضبط ، وإنما هناك احتمال أن يتقدم أو يتأخر الوضع أسبوعًا أو أسبوعين عن هذا التاريخ المحدد علميا .

– **ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يومًا وذلك** تمام أربعة أشهر ودخوله فى الخامس كما بيناه بالأحاديث . وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام فى الاستلحاق عند التنازع وفى وجوب النفقات على حمل المطلقات ، وذلك لتيقنه بحركة الجنين فى الجوف ، وقد قيل إن الحكمة فى عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر وهذا الدخول فى الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل .

– **ومذهب مالك** رضى الله عنه أن النطفة ليست بشىء يقيناً ولا يتعلق بها حكم إذا لم تجتمع فى الرحم ، فهى كما لو كانت فى صلب الرجل ، فإذا طرحته المرأة علقة، فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد. وعلى هذا يكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضى العدة، ويثبت به لها حكم أم الولد، وهذا مذهب مالك رضى الله عنه وأصحابه.

وقال الشافعى رضى الله عنه :

لا اعتبار بإسقاط العلقة وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط فإن خفى التخطيط وكان لحمًا فقولان بالنقل والتخريج والمنصوص أنه تنقضى به العدة ولا تكون أم ولد . قالوا : لأن العدة تنقضى بالدم الجارى فبغيره أولى .

والمضغة (مخلقة وغير مخلقة) : قال الفراء : (مخلقة) تامة الخلق (وغير

= وفى حالات نادرة جدًّا قد يتأخر الوضع كثيرًا جدًّا فبعض الحالات : طال الحمل فى إحداها حتى ٣٣١ يومًا وحالة أخرى إلى ٣٤٩ يومًا – ومثل هذه الحالات مشهورة تداولت المحاكم بعضها لإثبات الأبوة حيث حدثت الولادة بعد فترة طويلة من انفصال الزوجين (طبيبك الخاص العدد ٧٠ – أكتوبر ١٩٧٤) ص ١٠٥ من مقال للدكتور (على البر.. أخصائى أمراض النساء والولادة) .

مخلقة) السقط . وقال ابن الأعرابي : مخلقة قد بدأ خلقها وغير مخلقة لم تصور بعد . وقال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء . قال ابن العربي : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلقة لأن الكل من خلق الله تعالى . وإن رجعنا إلى التصوير الذى هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : (ثم أنشأناه خلقًا آخر) . فذلك ما قال ابن زيد .

- والتخليق من الخلق وفيه معنى الكثرة فما تتابع عليه الأطوار فقد خلق خلقًا بعد خلق وإذا كان نطفة فهو غير مخلوق . (القرطبي) .

وأجمع الشافعي وأبو حنيفة : على أن المولود إذا استهل صارخًا يُصَلَّى عليه فإن لم يستهل صارخًا لم يصل عليه . وقاله ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما . وروى عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السقط ويقول سموهم واغسلوهم وكفنوهم وحنطوهم فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم قال ابن العربي : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذى يسمى وما لم يتبين خلقه فلا وجود له .

(يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) . (سورة الحج) .

وفى هذه الآية يبين الله لنا قدرته بتصريفه أطوار الخلق .. (ونقر فى الأرحام ما نشاء) قال تعالى : (ما نشاء) وليس من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل

أى نقر فى الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهى جماد فكنى عنها بلفظ ما (١٥) .

وقوله تعالى : (ثم نخرجكم طفلا) أى أطفالا فهو اسم جنس وأيضًا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد . قال تعالى : (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) . وقال تعالى : (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسًا) والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) وولد كل وحشية أيضًا طفل ، ويقال جارية طفل وجاريتان طفل وجوار طفل وغلام طفل وغلمان طفل . ويقال أيضًا : طفل وطفلة وطفلان وطفلتان وأطفال ولا يقال طفلات . وأطفلت المرأة أى صارت ذات طفل والمطفلة : الظبية معها طفلها وهى قريبة عهد بالنتاج . والطفل (بتشديد وفتح الطاء) هو الناعم يقال جارية طفلة (أى ناعمة) وبنان طفل .. وقد طفل الليل إذا أقبل ظلامه .

والطفل : بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب . والطفل أيضًا : مطر .

(ثم لتبلغوا أشدكم) : أى كمال عقولكم ونهاية قواكم .

(ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) : أى أخسه وأدونه وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل .

(لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) . قال تعالى : (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) .

---

(١٥) نقصد هنا الكلام عن الإقرار والإخراج (السقط) وليس عن الإجهاض .. فتلك قضية أخرى تحرمها الأديان إلا لضرورة يقررها الأطباء المتخصصون . وليس هنا موضع بحثها . كذلك لم نقصد أن نعرض هنا لعقم الرجل وعقم المرأة أو وسائل منع الحمل وغيرها حيث يمكن أن تكون تلك دراسة مستقلة .

وكان الرسول ﷺ يدعو فيقول : (اللهم إنى أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الحين وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر) . أخرجه النسائى عن سعد[١٦] .

***

ولسنا نريد هنا أن نعرض للوفاة (الموت) ولكننا نقف لنقول لبنى البشر بعد ما أوضحناه ألم يأن للذين ألغوا عقولهم وعطلوا حواسهم أن يتدبروا خلق الله حتى فى أنفسهم وهو الذات الإنسانية) ؟؟ أم على قلوب أقفالها ؟؟ فإذا كانت لديكم حجة تتذرعون بها فى ضلالاتكم فـ (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) و (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) . (يأيها الناس ضرب مثل

---

(١٦) فى بحث قام به الدكتور/محمد عصام فكرى أستاذ الأمراض الباطنية بجامعة الإسكندرية ونشرته مجلة جمعية أمراض الشيخوخة الأمريكية ذكرت بعض الأرقام التى تصور ما الذى يحدث فى الجسم عندما يتقدم العمر من أهمها :

الوزن : يصبح المتوسط ٦٢ كيلو جرام بدلا من ٧٠ كجم (المتوسط فى سن الشباب) .

الطول : يصبح المتوسط أقل بين ٣ ، ٥ سنتيمترات (لعدم استقامة العمود الفقرى) .

القلب : يصبح أصغر وزناً (من ٢٨٠ – ٣٤٠ جراما فى الشباب إلى ٢٥٠ جم فى الشيخوخة) .

الكبد : يصبح أصغر وزناً (من ١٥٠٠ – ١٦٠٠ جراما فى الشباب إلى ١١٠٠ جم فى الشيخوخة) .

الرئتان والمخ : الرئة اليمنى من ٦٢٥ جم إلى ٤٥٠ جم واليسرى من ٥٦٥ جم إلى ٣٥٠ جم والمخ من ١٢٥٠ – ١٤٠٠ جم فى سن الشباب إلى ١١٢٠/٩٠٠ جم فى سن الشيخوخة) .

الكليتان : من ١٧٠/١١٥ جم إلى ١٣٠/٦٠ جم .

الطحال : من ١٠٠/٢٠٠ جم وأحياناً إلى ٥٠ جم .

الخصيتان : من ٥٠ فى الشباب إلى حوالى ٢٥ جم – كذلك ينخفض وزن أمام الرحم فى المرأة من ٦٠ جم إلى ٤٠ جم ووزن المبيضين من ١٢/١٠ جم إلى ٤جم .

أوزان ثابتة : الغدة الدرقية – غدة فوق الكلية .

أوزان تزيد : البروستاتا هى العضو الوحيد الذى يزيد وزنه مع الشيخوخة (من ٨جم فى سن الشباب إلى ٥٠ أو ٦٠ جم فى سن الشيخوخة) .

فاستمــعوا لـه إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) .

البَـابُ الثـالث

القرآن والتربية الجنسية

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

(الروم)

(وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات)

(النحل)

القرآن والتربية الجنسية

فى القرآن منهاج للحياة الدنيا كما أن فيه بصائر للآخرة .. فالقرآن يعلمنا تفاصيل الحياة العملية الفاضلة كما يريدها الله وكما ينبغى لها أن تكون بمقياس الفطرة السليمة .. والقرآن لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. حتى التربية الجنسية .

يقول موريس بوكاى[1] :

هناك آيتان قرآنيتان تخصان العلاقة الجنسية . ويذكر القرآن ذلك بألفاظ تربط بين الرغبة فى الدقة والاحتشام اللازم . وعندما نرجع إلى ترجمات وتفسيرات هاتين الآيتين فإن الاختلاف بينها هو أول ما يسترعى الانتباه ، ولقد ترددت طويلا أمام تفسير هاتين الآيتين وإنى مدين بالتفسير الذى أقدمه لهاتين الآيتين للدكتور عبد الكريم جيرو ، الأستاذ السابق بكلية الطب ببيروت .

وفى هاتين الآيتين يقول الله تعالى :

(خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) . الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الطارق . يشير النص القرآنى إلى منطقة الرجل الجنسية بكلمة (صلب) .. أما المنطقة الجنسية للأنثى فيشير إليها بكلمة (ترائب) وهى جمع .

ويختلف هذا التفسير عن ذلك الذى كثيرًا ما يعطيه المعلقون الفرنسيون والإنجليز إذ يقولون : (خلق الإنسان من سائل منتشر يخرج بين العمود الفقرى وعظام الصدر وليس هذا التفسير مفهومًا بشكل كاف) .

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم – موريس بوكاى – دار المعارف .

وتشير آيات[٢] قرآنية إلى سلوك الرجال فى علاقتهم الأثيرة مع نسائهم فى ظروف متنوعة .

فأولا هناك التوجيه بالسلوك اللازم فى مدة الحيض وتشير إلى ذلك الآيتان ٢٢٢ ، ٢٢٣ من سورة البقرة : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم) .

والمعنى واضح تمامًا : فتحريم إقامة علاقات جنسية مع امرأة حائض أمر قاطع . أما الآية الأخيرة فيشير المعنى إلى الحرث الذى يسبق ، عند الباذر ، وضع البذور التى ستنبت زرعًا جديدًا « الحرث » . إذن لابد أن يكون واضحًا لدى الإنسان أن الهدف النهائى للعلاقة الجنسية هو الإنجاب .... والعلاقات الجنسية مسموح بها فى الليل فقط طيلة فترة الإفطار من شهر رمضان .. ففى الآية ١٨٧ من سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ... فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) .

وعلى العكس من ذلك فليس هناك استثناء للحجاج فى أثناء أيام الحج المحددة :

(... فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ..) الآية ١٩٧ من سورة البقرة . فالتحريم هنا قاطع كتحريم الصيد والخصام وغيره فى نفس هذه الفترة .

وفى الآية ٤ من سورة الطلاق : (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن

---

(٢) فى كتاب موريس بوكاى (وتشير عبارات ...) .

ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

والأمر هنا عن تلك الفترة التى تمر من إعلان الطلاق وحتى يصير فعليًا .. والنساء اللاَّئى (يئسن من المحيض) فى الآية هن اللاتى بلغن سن اليأس . وقد خصص القرآن لهن احتياطًا فترة من ثلاثة أشهر بعدها تستطيع تلك النساء المطلقات اللائى انقطع طمثهن أن يتزوجن .. أما بالنسبة إلى النساء اللاتى لم يحضن بعد فلا يكون الطلاق فعليا إلا بعد الوضع .. وكل هذه التشريعات تتفق تمامًا مع المعطيات الفسيولوجية . وبالإضافة إلى هذا نستطيع أن نجد فى القرآن فى النصوص الخاصة بالترمل ، نفس الأحكام السديدة .

بناء على كل هذه فالمقولات النظرية الخاصة بالتناسل والتوجيهات العملية التى يصوغها القرآن فيما يختص بحياة الأزواج الجنسية ، نلاحظ أنه ليس هناك أى مقولة مما سبق الحديث عنه تتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ولا مع ما يمكن أن يخرج منطقيًّا عنها .

* * *

هذا ما يقوله « موريس بوكاى » وهو ليس بمسلم .. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره وأن يشهد للإسلام حتى خصومه .. ذلك أن الإسلام لا يتكلم عن الأحكام خلسة ولا فى الظلمة بل هو يواجه الحياة جهرة ويسلط الأضواء حتى على طاقة الجنس فيعترف بها اعترافًا كاملا صريحًا وقويًّا .. ثم يجتاز مجرد مرحلة الاعتراف إلى مرحلة التنظيم والتقويم فيربيها لا بالقمع والكبت ولكن بالتأديب والتهذيب والأخذ منها بأعدل نصيب .. حتى إنه ليجعل للزوج صدقة فى بضعه .. يقول الرسول ﷺ : « وفى بضع أحدكم صدقة » . قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليأتى شهوته ثم يكون له عليها أجر؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى

حرام ، أكان عليه وزر؟ » قالوا : نعم ، قال « فإذا وضعها فى حلال فله عليها أجر . » رواه مسلم .

هكذا يكون الأمر وإلا فلا .. دون عناد ولا هروب .. ودون استنكار أو استقذار أو حطٍّ من قيمة هذا العمل الذى شرعه الله لعباده مع زوجاتهم حلائلهم .. حفاظًا على عفة الزوج وإحصانًا للفروج .. ومنعا لخلط الأنساب وانحرافات الأسر .. يتناول الإسلام هذه الطاقة المودعة أمانة فى جسم الإنسان فيضبطها ويهذبها وينظفها فلا يكون منها إلا ثمرة طيبة هى الذرية الصالحة .. كذلك فإن الإسلام ينظم هذه الطاقة حتى مع الشباب ممن لم يتزوجوا .. فيخاطبهم الرسول ﷺ بقوله : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .. » وجاء : أى حصن وجنة يقيه من الانحراف .

بل إن الإسلام ليعتبر مسألة الجنس جزءًا من العبادة[٣] فالنبى ﷺ يستحث على أدائها إذ يقول : « أكملوا نصف دينكم بالزواج » فإذا قيل إنه ينظر إلى الناحية الأخلاقية لا الجنسية . فهو الذى يقول : « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة » فيرفع الجنس من حيث هو جنس إلى مستوى الصلاة ، أطهر ما يتطهر له المؤمن ، ومستوى الطيب ، أزكى رائحة تنتعش لها الروح . وهو هنا إنما يتحدث عن المرأة الحليلة وليس الخليلة .

بل إن ما يصنعه المسلمون ولايزال أتقياؤهم حريصين عليه قراءة اسم الله قبل البدء فى العملية الجنسية ليدل دلالة قاطعة على مدى نظافة الجنس فى حس المسلم .. وهكذا يستجيب الإسلام لأهداف الحياة كلها فى وقت واحد لا يغفل

(٣) الإنسان بين المادية والسلام – محمد قطب – (المشكلة الجنسية) .

منها شيئًا ، ولا يقحمه إقحامًا على النفوس . فهو إذ يعرف دافع الجنس يعرف حق الحياة فى استمرار النسل وحق الناس فى إجابة الشهوة الطاغية . وإذ ينظف وسائل التنفيذ يعرف استهداف الحياة للارتفاع وقدرة الناس عليه ولا يكلفهم مع ذلك شططاً .

* * *

يتصور الإنسان العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها الشيء الطبيعى الذى ينبغى أن يكون ، فهو يقر بأن الله تعالى قد جعل فى قلب كل منهما هوى للآخر وميلا إليه ، ولكنه يذكرهما بأنهما يلتقيان لهدف هو حفظ النوع ، فمن المسلم به لدى (العلم) أن للوظيفة الجنسية هدفًا معلومًا وليست هى هدفاً فى ذاتها . يقول تعالى : (نساؤكم حرث لكم ..) فالإسلام يجعل للفرد صفتين فى آن واحد : صفته كفرد مستقل ، وصفته كعضو فى الجماعة .. ونرى ذلك حتى فى المسألة الجنسية . فإذا ألقى الله فى قلب كل جنس هوى للجنس الآخر ، فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولا إلى إنتاج النسل . وهو الوظيفة القريبة المباشرة . ولكن هذا جزء من تناسق أكبر.. فهناك الأسرة ومالها من مكانة رفيعة فى التشريع الإسلامى باعتبارها نواة المجتمع الصالح الذى يمثل مع غيره من المجتمعات الإنسانية الراقية .

* * *

والقرآن يصف العلاقة بين الرجل والمرأة فى تعبير دقيق جميل فيقول : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وهو تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح فى آن . فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان وهو الستر الذى يستتر به وهو فى الوقت ذاته يناسب قدَّه لا ينقص ولا يزيد ، والرجل والمرأة ألصق شيء بعضهما ببعض ، يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفى لحظة يذوب كل منهما

فى الآخر فلا تعرف لها حدودًا . وهما أبدًا يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذى يشبه اتحاد اللباس بلابسه .

ثم هما ستر ، كل واحد للآخر فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شىء فتنهبه الأفواه والعيون .. وإذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منهما لباسًا لصاحبه ، يزينه ويكمله ، ويلتصق به للوقاية والستر . فلا مناص حين يلتقى الجنسان من أن نختار للبشرية بين أحد وضعين :

– أن تكون جميع الإناث لجميع الذكور على الطريقة الغالبة بين الحيوان[٤] .

– أو تكون امرأة واحدة لكل رجل، ورجل لكل امرأة – فى الأغلب –، وكان الأمر الطبيعى أن يختار الدين هذا الوضع الأخير الذى يحقق من المتاع والطمأنينة أكثر مما تحقق النشوة المسعورة، التى تخلف القلق العصبى والاضطراب النفسى.

---

(٤) بعض الحيوانات العليا تنشئ نظامًا قريبًا من نظام الأسرة فلا تعترف بالفوضى الجنسية من جانب الأنثى ، فإذا اشتهى هذه الفوضى أحد الذكور قامت المعارك التى تنتهى بانتصار الأقوى وإذعان الضعيف .

الزواج أحسن وسيلة لأحسن
غاية وهى الإنجاب

يقول الله سبحانه وتعالى :

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ..) فالقرآن يقرر لنا أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست مجرد علاقة إشباع شهوة[(٥)] الفرج بل هى علاقة تكامل من أجل العمران وليست مجرد حاجة شهوانية .. ففيما بين الرجل والمرأة تكامل فى الخلق ، والعلاقة بينهما مودة وسكن ، وهى علاقة لا تنقطع بمجرد الفراغ من قضاء الحاجة الغريزية أو حتى بعد الإنجاب ، بل إنهما يتآزران ويتعاونان فى تربية أبنائهما بكل ما يطيقان من الرعاية والعناية حتى يؤثرانهم على نفسيهما مودة ورحمة .

ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى نظام الزواج ليكون صلة دائمة وقوية ونظيفة ومنزهة عن مجرد العوارض التى تزول .. ليكون إطاراً صحيحاً وقويًّا لنشأة هذا النبت الجديد من بنى آدم ، وحتى ينعم الأبناء بدفء الأسرة وحماية الأب وحنان الأم ، وحتى يتعلم النشء على يد الوالدين قوانين التعامل مع المجتمع المحيط بهم وغيره من المجتمعات ليشبوا على الآداب والتقوى .

ولو أن الأمر كان مجرد علاقة نزوة بين الذكر والأنثى لرأينا الطرفين وكل منهما يحاول التخلص من ثمرة هذه العلاقة والتهرب من حمل مسئولية العناية بها

---

(٥) قصد فرويد وبعض علماء الغرب أن الجنس مجرد حاجة من حاجات الإنسان التى لابد من البحث عن عديد من الوسائل لإشباعها مما نتج عنه ما نسمع به اليوم من عقود الزواج بين الرجل والرجل أو المرأة والمرأة مما تعافه الفطرة السليمة وتحرمه الأديان .

وتربيتها مما ينعكس على الطفل ، فيصيبه بالعقد النفسية والأمراض العضوية ، فيتحول إلى المجتمع المريض الذى شاء له قدره أن ينشأ فيه فينتقم من أعضائه ويدمره تدميرًا .. وما بهذا تستقيم الحياة ولا تصلح الدنيا ، فالزواج المشروع هو أحسن وسيلة لأحسن غاية وهى الإنجاب .. وفى الصفحات القادمة نطرح موضوع الاختيار فى الزواج.. وحكم الإسلام على الزواج بالأجنبيات وحديث القرآن عن الأزواج والزوجات.. وطموح الأنبياء للبنين، على بساط البحث.. كما نعرض لأهمية الأسرة كنظام اجتماعى مشروع.

الاختيار فى الزواج (٦)

الزواج رابطة مقدسة . تقوم على المعانى الروحية والعاطفية أكثر مما تقوم على أى معنى آخر . وهو عقد لا تراد به صفقة عابرة . ولا أمر وقتى سريع الزوال . بل هو عقد يرد على اشتراك طرفيه فى الحياة شركة يراد بها الدوام والاستقرار . شركة تامة فى شئون الحياة . ما خفى منها وما ظهر ، ما عظم منها وما صغر . شركة متشعبة النواحى متشابكة الأطراف ثقيلة الأعباء كثيرة التبعات . وعقد هذه طبيعته . وهذا جلال شأنه . يجب أن يتمتع كل من طرفيه بالإرادة الكاملة والرضا التام أكثر من أى طرفين فى عقد آخر ، فليس لكائن من كان أن يكرهه على الإقدام عليه ولا على الارتباط بمن لا يريد الارتباط به . ومن حقه أن يترك فى هذا وشأنه . لا سلطان عليه إلا لإيمانه وعقيدته وظروفه التى هو أدرى بها من غيره . على ألا يمس حقوق الآخرين وألا يسىء استعمال هذا الحق . وأن يبغى المشورة ويسعى إلى الاستقامة حينما يكون فى حاجة إليها .

والآيات الكريمة . والسنة النبوية الصحيحة التى وردت فى هذا الأمر كان

(٦) لفضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى – من كتابه الأسرة فى التشريع الإسلامى .

من وراء دلالاتها وإرشاداتها ما جعل هذا الموضوع من المسائل الاجتهادية التى اختلفت فيها آراء الأئمة والفقهاء . وكثرت أقوالهم . وفى طليعة هذه الأقوال ما ذهبت إليه طائفة منهم : وهو أنه متى بلغ كل من الفتى والفتاة الحلم عاقلا فليس لأحد من أوليائه ولا من غيرهم أن يحمله على الزواج ولا أن يجبره على الزواج بمن لا يريد ، ولا أن يحول بينه وبين الزواج بمن يرغب فى زواجه . اللهم إلا أن يكون زواجًا يجلب العار إلى قوم الفتاة . فإن لأقربهم إليها عصوبة حق الاعتراض على هذا الزواج . وطلب التفريق بين الزوجين . وما ذهبت إليه هذه الطائفة هو الذى يجرى عليه العمل بالدولة المصرية من زمن بعيد .

وإذا كان العمل بهذه الأحكام قد أطلق الحرية للجنسين فى أمر الزواج وحمى الفتيات من استبداد الآباء ومن إليهم . ووقاهن شر نزعات الأولياء التى تنشأ فى كثير من الأحيان عن بواعث بعيدة عن رابطة الزوجية . وسعادة الزوجين .. فإنه من ناحية أخرى لا يحقق الغرض المرجو فى بعض الأحيان وترك فى بنائها التشريعى ثغرة لاتزال ريح الشر والفساد تهب منها .

لا ريب فى أن الفتيان والفتيات فى أول مرحلة من مراحل النضوج الجسمي ، يمرون بطور هو الغاية فى الخطر : طور تملؤه فورة الشباب الجامحة طور قليل الخبرة والتجارب بل لا خبرة فيه : طور لايزال فيه كل من الوازع الدينى والوازع الخلق لين العود . والاختلاط اليوم بين الفتيات والفتيان قد بلغ الذروة فى الطرقات . وفى الحقل وفى المصنع وفى المتجر . وفى دور العلم . وفى كل مرافق الحياة ، والحياة اليوم قد امتلأت بأساليب من الخبث والخديعة لم تكن مألوفة من قبل . والسلطان الأدبى لتقاليد الأسرة ضعفت شعلته . ومن هذه العوامل مجتمعة وقعت بيننا مآسٍ هى الغاية فى القسوة ، شهدت دور القضاء الكثير منها ، وهذه المآسى وقعت وتقع على غير علم من أسرة الفتاة

وأهلها . وعلى الدوام تبدأ المأساة باسم الزواج فى ظروف تحمل على اعتقاد أن الأسرة لا ترضى عنه . ولو أن الفتاة تعلم أنها حرة طليقة فى شأن زواجها لا معقب على إرادتها لتبدل الحال غير الحال ولوقاها الله شر الوقوع فى شرك النذل الجبان .

على أن اتساق التشريع . وما يجب من إعطاء كل أمر ما يستحقه من العناية وما يلائمه من الأحكام يأبيان ما نحن عليه اليوم ، حيث تنتهى الولاية على النفس بمجرد بلوغ الحلم . ثم لا رقيب ولا حسيب ولا استعانة مفروضة فى أمر جلل كالزواج حتى فى الطور المليء بالمكاره . أما الولاية على المال فتبقى إلى نهاية الحادية والعشرين عظم المال أو قل . وهذه التفرقة لا يعرف لها مثيل فى الشريعة الإسلامية . فكما ترى انتهاء الولاية على النفس ببلوغ الحلم كذلك تقول فى الولاية على المال . والشرائع الوضعية كما تستبقى الولاية على المال إلى ما فوق العشرين تستبقى الولاية على النفس كذلك وهذه التفرقة تفرقة مقلوبة الوضع . فالمال مهما عظم شأنه لا يمكن أن تصل الولاية عليه مرتبة الولاية على النفس وبخاصة فيما يتصل بالحياة الزوجية والأنساب والأعراض .

ومن رأيى أنه لابد لنا فيما قبل بلوغ الفتاة الخامسة والعشرين من الأخذ بما ذهب إليه بعض الأئمة من أنه لا يحل للمرأة نكاح . ثيبًا كانت أو بكرًا ، إلا بإذن وليها ، بمعنى أنه لابد لصحة الزواج فيما بين بلوغ الحلم وانقضاء الخامسة والعشرين من اجتماع رضاء الزوجة وإذن الولى وإن لم يأذن الولى ترفع الأمر إلى القضاء فيأذن لها متى تبين أن فى هذا الزواج مصلحة لها .

والصفات التى يجب أن تكون الأساس الصحيح لاختيار المسلم لزوجته والمسلمة لزوجها قد بينت فى مواطن كثيرة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة وهى الصفات التى تكفل للأسرة سلامة البنيان .. وتحقق المقاصد السامية التى

شرع من أجلها الزواج : وهى الإحصان والعفاف . والتوالد .. والسكن والمودة والتراحم وما إلى ذلك . وإذا ما توافر الحرص على هذه الصفات عند الاختيار فلا حرج على مسلم ولا مسلمة أن يبتغى منها صفات أخرى يرغب فيها كالمال والجمال والجاه وما إلى ذلك . أما من لا يبالى بالصفات الأساسية ولا يعنيه من أمر الزواج إلا أن يكون صفقة تجارية . أو طريقًا لشهوة بهيمية فإنه آثم قلبه . وخارج على تعاليم دينه . وهذا هو الذى توعده رسول الله ﷺ بخيبة الأمل . وانعكاس الرجاء . فقد قال عليه الصلاة والسلام : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل . وجاءه رجل فقال يا رسول الله إنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه . ثم أتاه الثانية فنهاه ثم أتاه الثالثة فقال له : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم . . » وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا . ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرًا . ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه . أو يصل رحمه . بارك الله له فيها وبارك لها فيه » .

الزواج بالأجنبيات

ولست أعنى بالأجنبية فى هذا المقام إلا الأجنبية غير المسلمة ، أما المسلمة فإنها لا تسمى فى عرف فقهائنا أجنبية مهما كانت دارها .

وزواج المسلم بغير المسلمة نزل فيه من الكتاب آيات ووردت فيه من السنة

آثار وعند النظر فى هذه الأدلة اتفق أئمة المسلمين على أن زواج المسلم بغير المسلمة زواج باطل لا يصح بحال إذا لم تكن كتابية . أما الكتابية إذا كانت يهودية أو نصرانية فقد اختلفوا فى صحة زواج المسلم بها . فذهبت طائفة منهم إلى أنه زواج باطل وذهب جمهورهم إلى أنه زواج صحيح . ومن هؤلاء الإمام الشافعى رضى الله عنه الذى اشترط لصحته أن تكون من قوم عُلِمَ أن آباءهم الأولين آمنوا بموسى عليه السلام قبل التحريف وبعثة عيسى عليه السلام على تفصيل فى بنات إسرائيل أو من قوم علم أن آباءهم الأولين آمنوا بعيسى عليه السلام قبل التحريف وبعثة محمد ﷺ . أما إذا علم عن قومها خلاف هذا أو جهل حالهم فإنها تكون محرمة على المسلم كغير الكتابية . وهذا الشرط يقضى بتحريم كثير من الكتابيات فى هذه الأيام .

ومهما يكن أمر الخلاف فى صحة زواج المسلم بالكتابية فإنه لا خلاف بين أئمتنا فى أن هذا الزواج مستثقل مذموم . وقد صرح الإمام مالك رضى الله عنه وغيره بأنه ثَمَّ محرم وإن كان زواجًا صحيحًا . وإذا كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد تزوجوا كتابيات فإن هذا لم يكن منهم إلا فى حالة الضرورة ، فقد سئل جابر بن عبد الله عن نكاح المسلم اليهودية والنصرانية فقال : تزوجناهنّ زمان الفتح بالكوفة مع سعد بن أبى وقاص ونحن لا نجد المسلمات كثيراً فلما رجعنا طلقناهن .

ومع أن هذا لم يقع إلا من نفر يسير . وكان عن حاجة . وكان إبان حرب واغتراب . فإنه أثار ثائرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فحينما بلغه هذا الأمر غضب غضبًا شديدًا . وهم أن يسطو على طلحة وحذيفة . وكتب إليهما يأمرهما بالمفارقة . وكان مما قاله : إنه يخشى أن يتركوا المسلمات ويقعوا فى حبائل الوضعيات ، ألا رحم الله أمير المؤمنين ورضى عنه وأرضاه فلو

أنه كان حاضر أمرنا لأعمل سوطه لادرته . ولوقتنا غضبته شر ما نعانى من بلاء .
فقد فشا فينا ترك المسلمات والزواج بالحثالة من الأجنبيات بعد أن تسلط
الأجانب على المسلمين فى أقطارهم . وارتحل أبناؤنا إلى ديارهم .

إن الفوارق بين المسلم وبين هذه الأجنبية فوارق جسيمة جدًّا لا يلتقيان معها
فهما مفترقان فى الدم واللغة وهو شرقى وهى غربية تخالفه فى الإحساس والشعور
وفى النشأة والتربية وفى الأخلاق والعادات والتقاليد .

ثم إنهم ينظرون اليوم إلى الشرقيين وكأنهم ينظرون من شاهق إلى الأغوار
البعيدة . فمع كل هذه الفوارق ليس لأحد أن يرجّى تحقق المقاصد التى شرع
الزواج من أجلها .. ولا أن يرتبط هذان الزوجان بالرباط الروحى الصحيح .

وما ترى هذه الأجنبية تغض عن كل هذا بدافع من المحبة المخلصة والولاء
المقيم ولا تخالها إلا باحثة عن سداد من عوز بعد عوز بعد أن ضاقت عليها
بلادها ، أو ملتمسة المتعة بالعيش الناعم وبلاد السحر والجمال . أو ساعية
لاحتلال أصغر يكون نواة لاحتلال أكبر . ولئن قلنا إن من الأجنبيات من
يدفعها أول الأمر خالص الودّ فهذا لن يكون سوى أمر عارض لا يلبث أن
يزول . وترى الطبع قد غلب التطبع وأن لنا فى حوادث الماضى والحاضر لأبلغ
العظات .

ولن ينال المسلم من هذا الزواج إلا لوثة فى دينه . فمن حق هذه الأجنبية أن
تأكل وتشرب فى بيته ما هو حل لها ومحرم عليه . ومن حقها أن تؤدى فيه شعائر
دينها . وبهذا تصبح حياته المنزلية خليطاً من إيمان وكفر . ثم من يدرى ماذا
تكون العاقبة ؟ وما الذى تجر إليه المجاملة أو يدفع إليه سلطان المرأة ومهما كان أمر
ما بينهما من الروابط الروحية الحقة فإنه على أية حال مفتون بها وهو لابد متودد
إليها وفى هذا التودد نقصان دينه . وقال أصدق القائلين (لا تجد قومًا يؤمنون

بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) .

ومتى اعتبرنا فتنته بها وبقومها . واعتبرنا شأن دولته ودولتها من ناحية السلطان والنفوذ واعتبرنا أنه فى الأعم الأغلب لم يدفعه إليها إلا مركب النقص المشوب بسوء التقدير، أو رغبته فى أن تكون عونًا له فى الوصول إلى مآربه استنادًا إلى سلطان قومها . . ، متى اعتبرنا كل هذا عرفنا كيف يكون سلطانها على بيته وسيرته . فهى مطلقة الإرادة فى بيته وعاداته وتقاليده . ثم لا تزال تصنع به ما تصنع حتى تذوب شخصيته وتنحل قوميته ويصبح أجنبيًّا فى وطنه .

ثم تأتى كارثة الأولاد وتربيتهم ، فهم فى يدها عجينة لينة طيعة تغرس فى نفوسهم منذ الطفولة الأولى ما تحبّ وتهوى . ويألفون من أعمالها وسيرتها ما يطغى على تعليم دينهم ويطفئ نور الإيمان فى قلوبهم ، ويميت القومية فى نفوسهم . فلا تلبث حتى ترى نسلاً هجينا لا يأبه لدينه . ويعتز بخئولته . ويفاخر بأقوام أمه . ويولى ظهره لآبائه وأجداده . ويتنكّر لقوميته ووطنه .

وفى الزواج بهؤلاء الأجنبيات محاربة سافرة لفتياتنا . وجرح لكرامتهن على غير جرم ، وما يتغنى به بعض المفتونين من شبابنا تفضيله للأجنبيات عليهن ليس إلا خيالا ووهمًا وأباطيل فى أضاليل .

وإذا ما تعارضت المصالح القومية كانت فطرتها حربًا على قومه، وعينًا لقومها عليهم ، ومن أجل هذا حرم كثير من الفقهاء القائلين بالصحة زواج الكتابية الحربية ، ومن أجله حرمت الدولة المصرية كغيرها الجمع بين زواج الأجنبيات ومناصب السلك السياسى ، كما حرمت زواجهن على رجال الجيش . وسنت له عقوبات صارمة وليتها توسعت فى هذا التحريم ، فالبلاد اليوم أحوج ما تكون إلى الرقابة .

يا قوم : لم يضيق الله علينا والفتيات المتعلمات الصالحات كثيرات فما لنا ولهذا الزواج المختلف فى صحته وبطلانه المتفق على أنه ثقيل مذموم ؟ وما لنا وللزوجة التى حرمتها شريعتنا من حضانة أولادها متى عقلوا لأديان وما لنا ولزوجة .. لا تأمن دولتنا جانبها لا فى سلم ولا فى حرب ؟ ما لنا ولكل هذا ورسول الله ﷺ يقول (دَعْ ما يريبك) ؟

يا قوم إن سد الذرائع واتقاء مواطن الشبهات أصل عظيم من أصول ديننا ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه . فمن كان يؤمن بالله الإيمان الكامل وكان بارًّا بنفسه وولده . وقوميته ووطنه عليه أن يقوم المفتونين من شبابنا ، وعليه أن يحارب هذا اللون البغيض من الزواج ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

حديث القرآن عن الأزواج والزوجات[7]

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما) .

كما يطلق الزوج فى الأعداد على مجموع الاثنين : يطلق على الواحد منهما باعتباره مكملا لصاحبه زوجًا فلم يعد فردًا واحدًا.

وقد انبثقت الجماعة الإنسانية من زوج وزوجة كما نعلم، ثم امتد هذا الأصل حتى كان محلقًا فى الدنيا بالقبائل، والشعوب، ويملأون الحياة وهذا ما يجمعه القرآن فى قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل..).

فإن تكن هذه الشعوب والقبائل فروعًا محدودة هنا وهناك ، فالأصل فيها زوجية بين ذكر وأنثى .

---

(٧) نفحات القرآن – الشيخ عبد اللطيف السبكى – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

والقرآن الكريم يتجه نحو هذه الزوجية بشيء غير قليل من عنايته ، ويتحدث عنها فى تصرفات متنوعة ، حتى ذكر لفظ الزوجية فى الجانب الإنسانى أكثر من خمسين مرة .. وسلك بنا فى شأنها مسالك عدة : لنقف على وجهة الإسلام فى شأن الزوجية من كل ناحية ، ونكون على تمام المعرفة بهذه القاعدة العمرانية التى أقيم عليها البناء الضخم فى تكوين المجتمع البشرى عامة .

ويسير بنا حديث القرآن فى اتجاهات أصيلة ، لا يقل أحدها عن الآخر :

فهو يذكرها - أولاً - فى سياق الامتنان بما فيها من بهجة واطمئنان، منذ انعقدت الزوجية فى صدر التاريخ بين آدم وحواء .. ومنذ جعل هذا الارتباط عيدًا شخصيًّا للزوجين .. حتى جعل الله الوئام بينهما ، فى ظلال الجنة : بين طيبات من الرزق ، وألوان من المتاع ، والغبطة (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما) .

وفى هذا التعبير إثارة للمسيرة فى نفس آدم بأول متعة جنسية يصادفها .. وفيه إشعار له ولزوجه بأن الهناءة لا تكون فى وحشة الانفراد ، وإنما تكون توافقًا بين الزوجين فى استقبال الحياة المشتركة ، وتبادل البهجة ، والامتزاج فى أنس الاجتماع والمجانسة فى الميول ، حتى ولو فى رحاب الجنة .

وذلك ما يصرح به القرآن فى قوله تعالى :

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها) .

(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) .

فالسكون هو الهدوء من الحركة ، والسكن الروحى هو الاطمئنان إلى الزوجة وهدوء الخاطر بجانبها من شواغل الحياة فى مجال الأعمال والكفاح .

وذلك سكون يلتمسه الزوج فى مأواه الخاص به وبزوجته .

وفى ظلال هذا السكون يتوثق الرباط الزوجى ، وتأتلف العواطف ، وتنشأ المودة ، والتراحم بين الحليلين (وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ثم يذكر – ثانيًا – زوجية الإنسان فى معرض الامتنان بأننا نتاج لزوجية معقودة بين اثنين . وأن نَسَبنا فى الإنسانية غير مدخول بما يشينه من سفاح ، وليس نتيجة لمجرد نزوات جنسية خاطفة ، كما يحصل بين الحشرات الدنيئة والحيوان والطير . يقول تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء) .

فالأب واحد ، والزوجة مشتقة منه فى أول وجودها ، ثم هى ثانية اثنين معه وفى هذا تزكية ثانية للإنسان بتأكيد نسبه من طريقها المشروع .

ولعل هذا تلميح فى قوة التصريح بأن العلاقة بين الجنسين ينبغى أن تكون على النمط المشروع من بدء الخليقة .

أما العلاقة الناجمة عن دوافع الغريزة وحدها : دون ضبطها بما يعتبر توثيقًا ففيها انحراف عن الأصل . وهى اندماج فى الهمجية البهيمية .. وبعثرة للأنساب التى يراد الحفاظ عليها ، لتكون بذوراً صالحة لتنشئة مجتمع قوى البناء (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) .

فالزوجية الصحيحة هى التربة الخصبة لإنبات البنين والحفدة ، وهؤلاء هم السلسلة الإنسانية فى نظمها الصحيح .

وهم الذين يتشعبون إلى فروع شامخة فى الآدمية الكريمة : لا يغض منها وضاعة النسب الملفق على غير تنسيق مشروع (وهو الذى خلق من الماء بشرًا فجعله نسبا وصهرا) .

وإذا كان هذا كله تعزيزًا للإنسان ، وتكريمًا له على كلّ ما سواه فى العالم الأرضى ، فكيف لا يكرم الناس أنفسهم فى تكوين أسرهم ، ومجتمعهم وكيف

يبنون الأنساب على شبه من الباطل ، بعد أن عاهد الله خلقه بتشريعه للزوجية أن يبنوها على حق صراح .

إن الـزوجية فى نـظر الدين، وفى نـظر الواقـع من حياتنـا كـمال ضـرورى للإنسان : رجلا أو امرأة .. فإن الانفراد شقوة كما نشهد ، أو هو على الأقل نقصان فى المتاع حتى ولو كان فى الجنة .

وإن الزوجية حصانة من مطاوعة الغريزة فى جموحها .. وفيها درء للشبهة وفيها وقاية للسمعة من قالة السوء .

وإذا كان جسم الإنسان بحاجة قصوى إلى لباس يقيه البرد والحر ، وعاديات الهوام ، ويضفى عليه جمال المنظر ، حتى لا يكون شبيهًا بالحيوان فى ابتذاله ، وتكشف سوءاته . فإن القرآن يعتبر الزيجة وقاية للإنسان من وساوس الشيطان فى حياة العزلة ، ويحفظ عليه ثقة الناس من ناحية العفة ، والصيانة ، والاعتصام بالكرامة .

وهذا ما عناه القرآن فيما نفهم من قوله تعالى عن الزوجات : (هن لباس لكم) ومن قوله تعالى عن الأزواج : (وأنتم لباس لهن) .

فكل من الزوجين وقاية للآخر من نقائص كثيرة ، كما يقيه اللباس من أضرار حسية ، وكل من الزوجين حلية وجمال للآخر ، كما يكون اللباس حلية ، وجمالا للإنسان .

ومما يشير إلى ذلك قول الرسول ﷺ من تزوج منكم فقد حفظ نصف دينه ، فليتق الله فى النصف الآخر . يريد النبى ﷺ أن نصف الدين فى صيانة العرض بالعفة الجنسية .

وهذا جانب إنسانى يستوى فيه الأنبياء وغير الأنبياء ، على ما هو مفروض

من عصمة الأنبياء عن الزلل . ولكن الطبيعة البشرية لا تقى إنسانًا عن قضاء الوطر ، إلا لسبب مانع .

وإذا كان فى الزيجة كمال شخصى ، فمحمد ﷺ - أولى بأوفر نصيب من الكمال . وهو لم يكن بدعاً من الرسل فى هذا ، ولا فى غيره .

وكانت شرائع الأنبياء قبله تجيز الجمع بين عشرات من الزوجات ، ومحمد لم يبلغ فى هذا مبلغ أحدهم - كداود وسليمان - عليهما الصلاة والسلام .

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية) .

هذا ، ولم تكن العزوبة كمالا فى رسول غير يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم - عليهما السلام - وطبعًا ذلك لحكمة تلائم ظروفهما عند الله .

وفرق ما بين الاثنين أن يحيى من أبوين ..

وأما عيسى فمن غير طريق الزوجية البشرية المعهودة .

ومع ما وضح من مباهج الزوجية فى الحياة الدنيا فإنك تجد الكتاب العزيز يشيد بها فى اليوم الآخر : فإن الله سبحانه - يسوق إلى عباده المؤمنين ، بشراهم بتحقيق ما وعدهم فى قوله يوم القيامة : (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) وليس هذا فحسب ، بل يعد الله عباده المتقين بزوجات من نساء الجنة - الحور العين .

(للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) (وزوجناهم بحور عين) .

(وعندهم قاصرات الطرف أتراب) .

(وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون) . (كأنهن الياقوت والمرجان) إلخ .

وإذا ربطنا أول الحديث بما وصلنا إليه وجدنا نعمة الزوجية ومتاعها مبدوءة فى الجنة بين آدم وحواء .

ثم تمتد ، وترافق الإنسان فى دنياه ، حتى تكون واصلة إلى نعيم الجنة إن كان مؤمناً فى حياته .

وحديثنا عن الزوجية فى الدنيا إنما نعنى به الزوجية البريئة من الزيف، ومن كل خسيسة يأباها الدين ، والنبى ﷺ يقول : الدنيا متاع ، وخير متاعها الزوجة الصالحة .

والزوجية على هذا النحو مرجوة بين الزوجات الطيبات ، والأزواج الطيبين ، ولا مطمع فيها بين الزوجات الخبيثات والأزواج الخبيثين .

وما ينبغى لمن عرف شأن الزوجية وخطرها أن يتجه رجل طيب إلى زوجة خبيثة فإن الله يقول : (الخبيثات للخبيثين) فكلاهما أشبه بالآخر .

وكذلك ما ينبغى أن تتجه امرأة طيبة إلى زوج خبيث .. فإن الله يقول : (والطيبات للطيبين) وكلاهما أولى بالآخر .

والزوجية مع الحيطة فى الاختيار تتعرض لهزات قد يثيرها اختلاف الميول، أو يثيرها تعثر الإنسان.

لذلك وضع الله لنا وقاية من سهام الشيطان ، فأوصانا بحسن العشرة والترفق بالزوجات وأن نحتكم إلى عدول نختارهم من الأقارب ، أو من فى حكمهم لإصلاح ذات البين ، حتى لا تنهدم الحياة الزوجية لأى نفخة ينفخها الشيطان فى عقدة الزواج بعد أن وثقها الله بين الحليلين .

فإن لم يكن للإصلاح أثره المنشود فى الإمساك بالمعروف ، فليكن تسريح بإحسان ، والفرقة خير من العيش على كراهية وعناد (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) .

ونحن نرى فى سياق الحديث أن القرآن يترفق كثيرًا بالمرأة، ويحمل الرجل على الترفق بها حتى فى ساعة الكُرْه ، واحتدام الخلاف فيصرفه عن الشطط فى كرهها ، ويبعث فى نفسه الأمل من جانبها ليرضى بها ، ويصبر على ما يكون منها (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

ثم يوصيه حين الفرقة بألا يحيف عليها فى حق من حقوقها (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا) .. عهدًا قويًّا .

وهذه توصيات مسبوقة بمثلها فى صدر التعاقد الزوجى . لا يدخل الزوج فى عقد الزواج إلا على ترفق بالمرأة .. وتحفظ من ظلمها فى شىء . (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) .

فذلك كله حفاظ على المرأة أن يخدعها الرجل فيستبيحها فى مراد من غير زواج مأذون فيه من الأهل ، أو يستغل سذاجتها فى هضم صداقها ، أو يكون عقده عليها فيه موارية واحتيال ، فذلك أشبه بالمخادنة أو السفاح .

وحيطة لهذا : اشترط الإسلام علانية الزواج ولو أمام اثنين فقط من الشهود العدول .

ونرى القرآن ينعطف بالحنو نحو الزوجة كثيرًا فيصرح بأنها سكن للزوج وبأنها منبت الأولاد ، وبأنها متعة له ، حتى فى الجنة إلخ .

هذا موجز من القول عن الأزواج والزوجات.. وعن تقدير الإسلام للمرأة وإشادته بما لها من شأن فى بناء المجتمع، وفى الحياة الخاصة وما يجب لها

على الرجل من رعاية ومن هذا الإيجاز تكون المرأة سامية فى الإسلام ، وفوق المكانة التى يفرضها الزاعمون الذين يخطئون فى فهم الوضع الصحيح للمرأة فى القرآن .

وأنت ترى مزاعم كثيرة يرددها من لا يعرفون أو يعرفون ويتجاهلون ... هداهم الله ، وزادنا إيمانًا وحسن تطبيق .

* * *

.. ولم يكن حديث القرآن فى هذا الشأن مقصورًا على من ذكرنا لك من إشادة بالزوجية وبيان أثرها فى تقويم المجتمع . بل إنه أولى الأسرة كل عناية وجعل الأبناء الصالحين هم الغاية . . كما سنبين فى الصفحات التالية .

وأول ما يأخذ به القرآن فى ذلك : هو عنايته ببناء الأسرة من أول تكوينها على أساس سليم .. فهو يهيب بنا أن نبتعد عن سوء الاختيار للزوجة أو الزوج ، قبل أن نتورط فى الزيجة ، ونتعثر فى عقباتها .

فيلفتنا إلى ناحية كانت مستساغة قديمًا ، ولا تزال مستشرية فى بعض البيئات كالمرض الفتاك .

وهى مطاوعة الشهوة البهيمية فى التزوج بمن لوثته جريمة الزنى وعرف بها .. ففى الإقدام على ذلك تهاون فى بناء الأسرة وتطويح بها إلى مهاب الظنون .

والله تعالى يقول فى ذلك : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) .

ولفظ « ينكح » يراد منه العقد الزوجى .. أو الوطء ، كما تتسع لذلك اللغة ، والقصد على أى المعنيين تشنيع ، وتقبيح لجريمة الزنى ولشخصية الزانى ، حتى لا ينبغى لامرأة حصان أن تتزوج برجل زان ، فإن شأنه أن يرغب فى من هى على شاكلته ..

وتزوج العفيفة به معرة عليها ، وخسة لها ، فلتعرض عن زواجه ، تحقيرًا

له ، وترفعًا بنفسها ، وصيانة لعرضها أن يتملكه الزانى المبتذل .. وليذهب إلى زانية مثله ، أو مشركة تستبيح الجرائم كلها . كذلك شأن الزانية (لا ينكحها إلا زان أو مشرك) .

فلا ينبغى لرجل كريم على نفسه أن يرغب فى الزواج بزانية ، وإنما يرغب فيها من كان على شاكلتها فى الفساد .. وترديد الأسلوب من جانب الزانى مرة ، ومن جانب الزانية مرة ثانية لتأكيد هذا التوجيه ، كما أكده بأسلوب الحصر ، حتى كأنه لا يصح تزوج زان ولا زانية إلا بمثله ، ولا يرضاه غيرها ، لما فيه من الحساسية. وجرح الكرامة .

وإذا كان لفظ ينكح قاصرًا على مجرد الوطء كان القصد تشنيعًا على الزناة، لا بيانًا لتشريع الزواج بهم.. وذلك وجه لا بأس به، ولكن حمل هذا اللفظ على عقد الزواج أوفى بالأغراض كلها : من تشنيع وتنفير من الزواج.. إلخ.

ثم انظر ثانيًا ..

تجد للقرآن مجالا آخر فى البعد بالأسرة عن مواطن الزلل ، والحرص على تكوينها فى إطار من الطهر والطمأنينة .

فلا يجعل الله تحذيرنا من الزواج بزان ، أو بزانية فحسب ، بل يفسح وعينا لما هو أبعد من ذلك فيقول تعالى :

(الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) فإن يكن الخبث وصفاً للكلمات السيئة وأنها لا تكون إلا من خبثاء ممقوتين ، فإن المرأة الخبيثة داخلة فى هذا الوصف دخولا أوليًا ، وأولويًا .

وهذا تشنيع على أهل الخبث بالزنى أو بغيره من خصال السوء ، وقبيح الأخلاق .. والمسالك المعوجة ، والأصول الوضيعة التى لم يرفع من شأنها دين ولا تهذيب .. فالمرأة الخبيثة لا ينبغى أن تتعلق بها الرغبة فى الزواج لمن كان ذا

تكريم لنفسه وواعيًا لحرثه ونسله وإنما تكون مرغوبة لدى الخبيثين مثلها من الرجال .. وهذا توجيه للرجل أولا : لأنه عادة يندفع بهواه إلى المرأة فاحتاج إلى توعية من غواية نفسه .

وكذلك كان التوجيه للمرأة (والخبيثون للخبيثات) ، يعنى أن الرجل الخبيث لا يرغب فيه إلا المرأة الخبيثة ، فلتزهد فيه من كانت عزيزة على نفسها ، وكريمة فى قومها .

وفى كلا التعبيرين حط من شأن الخبثاء ، عن مستوى الاختيار للزيجة ، فإن الزوجين أصول ، والذرية فروع لها ، والأسرة كلها كحقل واحد يراد تنقيته من الطفيليات والآفات ليكون كله نضرًا يعجب زراعه ، وغير زراعه .

ومن أجل هذا كان من توعية الرسول - ﷺ - لأمته فيما أثر عنه : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دسَّاس » .

ويقول الشاعر :

وهل تنبت إلا فى مغارسها النخل ؟

والفقهاء يراعون ذلك فى اعتبارهم الكفاءة بين الزوجين ، حتى جعلها بعضهم شرطاً فى صحة العقد .. والقرآن الكريم يقرن هذا التوجيه السلبى بتوجيه إيجابى ، فيقول تعالى : (والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) .

فهذا ترغيب حثيث فى اختيار الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، وكذا فى اختيار الطيبين من الرجال للطيبات من النساء .

فذلك كله تسوية للأوضاع ، وتوعية دينية واجتماعية فى أمر خطير كثيرا ما تطيش به الرغبات ، ويجرفنا تيار الشهوة فى جمال ، أو فى مظهر لا يكون فى حصانة من خلق، ودين، وتكون الحياة بعد ذلك فى أن سخط وضرر الزوجية يكون أكثر من نفعها ، ولعل ذلك التسامح وراء المطامع والنزوات هو السبب

غالبًا فيما يشاع بيننا من تبرم بالحياة المنزلية ، ومن سخطة نفسية تتقد جمراتها بين جوانح الزوج أو الزوجة ، فتتصدع أواصر الزيجة والنسب ، وربما تبدلت راحة الحياة بذرية لم تكد تهنأ بنصيب من رفاهية الطفولة فى أحضان الأبوين فيستطير الشرر ، وتتأرث العداوة ، ولا يسهل تدارك ما فات ، بعد أن تمكن الشيطان من وضع يده ، ونفث سمومه .

كل ذلك : قصص توجيهى نحو ما ينبغى فى تأليف الأسرة ، والتحرى فى تكوينها .. أكثر مما تتحرى فى شئون لا يبلغ خطرها مبلغ ما تحدث عنه القرآن فى مثل هذه العناية بالأسرة .

ولقد امتدت بنا الآية إلى ذكر الطيبين من عترة النبى ، ومن كانوا يعيشون فى ظلال النبوة ، فيقول تعالى فى الإشادة بهم ، وإنهم الطيبون الذين تنزهت سيرتهم عن شوائب الريبة .

وينفى عنهم ما كان يرجف به المرجفون من الكفار والمنافقين (أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

هؤلاء من أصول كريمة ولم يتسرب إليهم سوء الاختيار الزوجى ، فلا تلحق بهم شبهة التشنيع الذى انحدر إليه أولئك السفهاء .. بل هؤلاء لهم عند ربهم مقام الرضا ، ولهم الرزق الكريم فى جنات الله الواسعة .

وذلك تنويه بشأن عائشة – رضى الله عنها – وعن أبيها الصديق .

ويقول العلماء تعليقًا على ذلك إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة كذبًا عليه ، برأه الله على لسان صبى فى المهد .

وإن مريم لما رماها اليهود بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه .

وإن عائشة لما تطاول المنافقون بالكذب عليها برأها الله تعالى بالقرآن ، فما

رضى لها ببراءة صبى ، ولا نبى ، حتى برأها بكلامه - سبحانه - تلك البراءة التى تكفل الله بها فى آيات عدة من سورة النور ، وبين فيها أن ذلك الإرجاف لم يكن فى حقيقته شرًا بعائشة بل هو خير فى تقدير الله .

ومن هذا ندرك ما يكون لكرائم النساء من طهارة العرض ، والبعد عن الشبهات والبراءة من أراجيف الخبثاء .

ولنا أن نفهم فى صواب أن القرآن يفيض علينا بتعاليمه ، فيقصُّ آياته ، ويضرب لنا الأمثال من واقع الحياة ، لنقتدى ولنزداد إيمانا .

الأسرة فى التشريع الإسلامى (٨)

عنى التشريع الإسلامى بالأسرة أتمّ العناية وأكملها . فوضع لها من أحكام الحقوق والواجبات والآداب ما يكفل لها إرساء الدعائم . وسلامة البنيان والحياة الطيبة المباركة ، ويهيئ منها عضوًا سليمًا صالحًا لأن يؤدى وظيفته أداء كاملا للمجتمع الإنسانى الذى نعيش فيه .

وأحكام الأسرة تعالج أمورًا سداها ولحمتها الإحساس والعاطفة ، وتقوم أكثر ما تقوم على المشاعر والروابط النفسية . وهى فى الأغلب من الأمور الدقيقة الخفية . وكثير من هذه الأحكام لا ينفع الجهر فى حمل الناس على امتثاله ، ولا يكفل له السلطان والسيادة سوى الإيمان والعقيدة وتهذيب الأخلاق وتقوية الوازع الدينى ومحاربة الآراء الهزيلة والنزعات الآثمة . ودعوة الناس إلى اتباع دينهم الحق، وإرشادهم إلى سواء السبيل.. وقد تحدثنا فيما سبق عن أن الزواج حجر الأساس. والدعامة الكبرى التى تقوم عليها بناء الأسرة. وقد

(٨) فضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى .

أمر به الله سبحانه وتعالى فى مواطن كثيرة من الكتاب الكريم . وأشار فيه بالقول الجامع الحكيم إلى مقاصده . وشجع الهيابين على الإقدام عليه .. ونهى عن وضع العقبات فى طريقه . وامتن به على رسله وسائر عباده .

ورسول الله ﷺ – وما ينطق عن الهوى – قد أكثر من الأمر به وبالغ فى الحث عليه . وأكد أن عون من يبتغيه حق على الله ، وفاخر بأنه سنته وأعلن براءته ممن يرغب عنها . أو يتركها خوفًا من الفقر والعيلة .

وقد اختلف الأئمة والفقهاء فى شأن هذه الأوامر ، فذهب فريق منهم إلى أن الزواج سنة محكمة . وفريضة واجبة على كل من يستطيعه وإن لم يخش زلة ولا فتنة . وذهب الباقون إلى غير ذلك من الآراء والتفصيلات . وأيًا ما كان أمر هذه الأقوال فإنهم قد أجمعوا على أن الزواج رغيبة من أفضل الرغائب وهدى إلٰهى نبوى يجب الحرص على إحيائه .

والتشريع الإسلامى لم يأمر بالزواج ، ولم يبالغ فى الحث عليه إلا لأنه السبيل الوحيد إلى الحياة الهانئة السعيدة ، فهو وحده الذى يكفل للرجل والمرأة على السواء حياة يسودها سكن النفوس ، واطمئنان القلوب وتتوافر فيها الثقة المتبادلة . وهو وحده الذى يكفل لهما المودة الخالصة والمحبة الصادقة . وهما أسس الروابط المتينة وهو وحده الذى يكفل لهما التراحم والتعاون فى السراء والضراء . ومتى قامت الحياة على هذه المشاعر كانت كلها خيرًا وبركة لأهلها ولأقوامها .. ثم هو وسيلة لحفظ النوع وخلق جيل صالح ينشأ فى كنف الفضيلة، وحنان الأمومة ورعاية الأبوة هذا إلى ما فيه من تعويد رب الأسرة على الاضطلاع بأعباء الرعاية وتحمل المسئولية ومشقاتها فى جرأة وإقدام . وهذه كلها فضائل ولذائذ روحية لا يحفل حصيف فى جانبها بأى ألم مهما كانت قسوته .

وهذه التعاليم الإسلامية قد سرت فى نفوس المسلمين منذ العصور الأولى

فرعوها حق رعايتها وأطاعوها فى السر والعلن عن إيمان خالص . وعقيدة صادقة لا فرق فى هذا بين باد وحاضر. وقد بقى أهل القرى على العهد بهم فلا سلطان على نفوسهم إلا للوازع الدينى وما يحيط بكل منهم من الاعتبارات والظروف ، بل أسرف بعضهم فى الإقدام على الزواج . فزوجوا الأطفال ومن هم على شاكلتهم ممن لم تؤهلهم أجسامهم وأعمالهم وخبرتهم للحياة الزوجية . حتى اضطر الشارع المصرى إلى التدخل وتحديد سن الزواج . ومع هذا لاتزال طائفة منهم تعمل على الإفلات من أحكامه .

أما أهل المدائن فقد وفدت عليهم من الأقطار الأخرى أفكار مادية بحتة ونزعات خبيثة ، فعلت فعلتها فى نفوس فريق منهم فأنستهم تعاليم دينهم وأنستهم اللذّات الروحية وجمالها وجلالها ، وأنستهم كل شىء إلا المادة وما يدور حولها ، وقد برز من بين هذا الفريق طائفتان .

أما إحداهما فإنها تدعو إلى العزوبة المطلقة . وتنشئ الأندية باسمها وهى لا تدعو إليها باسم التبتل والعبادة . بل من أجل المرح والتخلى عن التبعات ، وتقول مالى وما للزواج والتوالد ؟ ولم أتحمل عناء الزوجات وهموم الأولاد ؟ ولم لا أتمتع وحدى بجهودى وثمرات أعمالى ؟ إلى غير ذلك من الأقاويل التى لا تصدر إلا عن إباحى لا يأبه بالدين . ولا يبالى بخلق كريم .

وأما الأخرى فهى طائفة المعوقين . الذين يدعون إلى إرجاء الزواج حتى يتسع الرزق ويكثر المال بحيث يضمن عيشاً رغدًا . وأهل هذه الطائفة قد ألبسوا دعوتهم ثوب الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى . وأفاضوا فى الإشفاق على العالم وموارده . وظهر من بينهم من يدعو إلى وضع العقبات من طريق التشريع. بل لوح بعضهم بالعودة إلى فتح بيوت البغاء الرسمى.

وأهل هذه الطائفة ليسوا من دين الله فى شىء . فهم لا يثقون بوعد الله

(إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) . ولا يثقون بوعد رسوله « ثلاثة حق على الله عونهم . وعد منهم الناكح يريد العفاف » ويتحدونه جهرة فى قوله : « من امتنع عن الزواج مخافة العيلة فليس منا » وهم يجمعون إلى ذلك الجبن والفرار من تحمل أعباء الرعاية . والقيام بالواجب الإنسانى . كما يجمعون إليه الدعوة إلى الرذيلة .

وإذا كانت دعوة أهل هاتين الطائفتين لم تبلغ المدى الذى يرجونه فلا ريب فى أن ما أحدثته من أثر . قد انضم إليه انحراف بعض الناس عن القصد الأسمى للزواج، وعوامل أخرى، فقد نسأ عن كل هذا فى المدائن وما إليها حالة غير مرضية، أطلق عليها بعض الباحثين اسم « أزمة الزواج »، ودعا إلى علاجها من طريق التشريع أو طريق العقوبات أو فرض ضرائب على المعرضين على الزواج وحرمانهم من بعض المزايا.

وعندى أنه لا توجد حتى الآن أزمة زواج بالمعنى الصحيح . وما يوجد حتى الآن لايعدو أن يكون حالة ركود بين طائفة معينة . أما الأزمة الحقيقية التى يجب الإسراع فى اتقاء شرورها فهى النزعات الخبيثة . والدعوة إلى الإعراض عن الزواج .

ونصيحتى إلى هؤلاء.. أن يتدبروا الأمر، ليتبينوا أن أى تشريع يتدخل فى هذه الشئون الحساسة الدقيقة لا يغنى شيئًا، وأنه مهما بالغ واضعه فى إحكامه سيكون تشريعًا ظالمًا، إثمه أكبر من نفعه.. إذ الناس فى هذا الأمر جد مختلفين، لكل ظروفه وعاداته وضروراته.

وعلى من يريد الإصلاح حقًّا أن يعمد إلى النفوس فيهذبها ويغرس فيها الفضيلة . وإلى الوازع الدينى فيوقظه من غفوته . ويعمل على تقويته . ثم يترك الناس لشئونهم يصدرون فيها عما تمليه عليهم صوالحهم ودينهم . هذا هو طريق

الإصلاح الصحيح الذى تجرى به الأمور مجراها المستقيم وتموت معه النزعات الخبيثة.

والأسر هى المجتمعات الصغيرة والخلايا التى يتكون منها بناء المجتمع الكبير يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها . ويصح بصحتها ، ويمرض بأمراضها وقد قام التشريع الإسلامى على هذه المعانى فى صورة واضحة مكتملة قل إن اكتملت فى غيره . وكان سباقًا إلى تحقيقها من جميع جوانبها فعنى بها أتمّ العناية وأكملها . ووضع من الأحكام والآداب ما يكفل لها الدعائم الرأسية المكينة . والبناء القوى المتين . وسلك سبيلا قوياً يجعلها أعضاء سليمة مكملة للمجتمع الإنسانى . تؤدى وظائفها الأداء الكافى الوافى .

وقد امتلأت آيات الكتاب الكريم والسنة النبوية بالدعوة إلى بناء الأسر وإرساء قواعدها على أن يقوم بناؤها على أساس سليم من المقاصد التى يبتغيها وهى مقاصد سليمة ترمى إلى سعادة الإنسانية وسعيها إلى الرقى والكمال . وهى الإحصان والعفاف . وسد الذرائع . ومقاومة الفساد . والقضاء على فوضى الاختلاط . وتهيئة حياة هانئة سعيدة لأفرادها تسودها الثقة والاطمئنان والتعاون وتحمل الأعباء فى مودة وتراحم . وخلق جيل صالح يشب فى جو من مكارم الأخلاق . وابتعد بها عن المتعة المجردة الجسمانية . وعن الحياة المادية المرذولة . وتوعد من انحرف عن هذا السبيل القويمة بانتكـاس الرجاء وخيبة الأمل . فهذا رسول الله ﷺ يقول « تزوجوهن على الدين ، ولأمة حرساء سوداء ذات دين أفضل » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا . ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرًا . ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن

فرجه . أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » ويقول : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم » .

وقد أرشد الله جلت حكمته إلى الحياة الروحية التى يجب أن تسود الأسرة بقوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

ولما كان تحقق هذه المقاصد السامية واستقامة أمور الأسرة وقيامها بواجبها الاجتماعى لا يمكن أن تسير فى طريقها القويم إلا إذا تساوت دعامتاها : الرجل والمرأة وتمكن كل منهما من القيام بواجبه . وأحس بالعزة والكرامة وأمن جور الآخر وبطشه . جاء التشريع الإسلامى فاستحيا المرأة ماديًّا وأدبيًّا واجتماعيًّا . ورفع شأنها ، وأعز مكانتها . وكفل لها أهليّة كاملة كأهلية الرجل ، وفرض لها من الحقوق المالية ما يتلاءم مع تبعاتها . وقامت حقوقها فيه على أصل ثابت هو المساواة . بإعطاء كل منهما ما يلائمه ويحسن القيام به . ومكن لها فى الأعمال الاجتماعية على شريطة ألا يخل ذلك بواجبها فى الأسرة وبتبعاتها كزوجة وأم .

وقد أوجب التشريع الإسلامى أن تسود الأسرة التربية الدينية التى تغرس فى النفوس العقائد السليمة الراسخة . وتربيها فى جو من الإيمان الصحيح . يحملها على التزام طاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه . ويحليها بمكارم الأخلاق لا رياء وسمعة ولكن ابتغاء رضوان الله . ويدعوها إلى مراقبة الله وحده وخشيته فى السر والعلن . ويهذب النفوس ويكبح جماحها . وينشر بين الناس احترام الحقوق وحب الخير . لا عن خوف ورهبة ولكن عن طاعة ورغبة . والتربية الدينية مصدر الخير والبركة . وسبيل السعادة فى الدنيا والآخرة . وإذا فسدت هذه التربية وأهمل شأنها ضعف الوازع الدينى أو مات فالعفاء على سعادة الناس واستقامة أمورهم .

وقد بلغ التشريع الإسلامى الغاية فى الدعوة أن تسود مكارم الأخلاق أعضاء الأسرة كواجب دينى لا يحل التهاون فى أدائه ولا فى إقامته . فقد روت أم المؤمنين عائشة ومعاذ وأبو هريرة رضى الله عنهم : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها . ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدى حق زوجها » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت » .

وقد ألزمها الله سبحانه أن تتأدب بآداب الدين وأن تتحلى بالحشمة والوقار فى نظراتها وفى لباسها وزينتها فقال عز من قائل (قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن)– الآية– وقال عليه الصلاة والسلام : أمر الله جلت حكمته أن يعاشر الرجال نساءهم بالمعروف .

وقال ﷺ : « الله الله فى النساء » قال « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا . وألطفهم بأهله » وقال : خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى » وقال : « إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ومن الخيلاء ما يحبه الله فأما الغيرة التى يحبها الله . فالغيرة فى الريبة . والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة » . وقال عز من قائل :

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا) . إلى غير ذلك من الآداب ومكارم الأخلاق التى تكفل للأسرة حياة صالحة وسعادة سابغة .

طموح الأنبياء إلى البنين[٩]

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) .

ينساق إلى بعض الأذهان أن الرغبة فى الذرية ظاهرة لحبّ الدنيا ، ويعيبون على أى إنسان أن يبغى الولد ليكون ذكرى والديه وعتاد أهله ويرون الحنين إلى الخلف محاولة للبقاء فى تلك الحياة ، فإن لم يكن بالذات فليكن بالخلف . وكل ذلك عند هؤلاء المتزهدين مشغلة عن الآخرة ، وتشبث بأعراض الحياة ، وهذا لهو أو أشبه باللهو ، واللهو كله ليس شيئاً فى حساب الأتقياء — هذا ما لديهم من تعللات ..

وهناك آخرون من عشاق التقاليد ، يتحاشون إنجاب الأولاد خشية أن تثقلهم التكاليف ، وتزدحم بهم متع الحياة الزوجية ، فهم لذلك يحجمون عن الزواج ، أو يستخدمون الوسائل المحظورة فى التخلص من إنجابهم .

ويفوت أولئك المتزهدين أن حب الولد فطرة فى الإنسان ، وفى كل نفس حية ، وأنها نزعة طبيعية امتزجت باللحم والدم وهى ما يسمونه « غريزة بقاء النوع » أو نحو ذلك مما اقتضته السنة الكونية . وفاتهم كذلك أن الدين الحق لا ينازع الفطرة ، وأن الفطرة السليمة لا تنأى عن الدين ، ولا تشاقه ، وكيف يكون بين الدين والفطرة السليمة عناد ، وكلاهما من صنع الله الذى أتقن كل شىء ؟

وكذلك صح عند الذين يقاومون الفطرة ويتأثرون بالتقاليد، أن هذا الاتجاه

---

(٩) نفحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكى . (سبق الإشارة إليه) .

لا يستقيم، ولا تستقيم عليه النظم الكونية بل لا تستقيم عليه الحياة الشخصية، فإن الإقلال من إنجاب الأولاد مدعاة لانكماش الدولة ، وانتقاص الجماعة ، ومن دواعي النهوض في الدولة أن تعمل على الكثرة ، وبجانب ذلك اعتبار آخر هو أن المرء يبتلي في ولده فيصبح بعد ذلك محرومًا يقاسي لوعة الحرمان أو على الأقل يعيش غير مستأنس بأبنائه بحكم الفطرة أعوان في الحياة.

وإذا كان حب الولد فطرة فليس أطوع للفطرة من صاحب دين خالص ، فما بالك بالأنبياء وهم صفوة الناس طباعًا وأرجحهم مدارك وأكملهم إنسانية ؟

أراد ربك أن يرسم لنا في المنهج الديني طواعية المرء للفطرة في حب الولد ، واتخاذ السبيل إليه ، فساق إلينا حديث الأخيار من عباده لنلتمس فيهم القدوة ونتلقى عنهم الوسيلة ، وفي ذلك ما يدفع الشبهة الكاذبة التي تخالج المتزهدين ، أو تجري في أفواه الأدعياء ، وفيه أيضًا إيقاظ لعاطفة الأبوة الكامنة في النفس والتي يحاولون كبتها أو الضغط عليها بالجنوح إلى التقاليد المصطنعة .

وهذا زكريا نبي الله عليه السلام ، بلغ من العمر ما بلغ ، وفات زوجته أوان الحمل ، وأصبحت عاقرًا لا تطمع في المخاض .

ولكن الأمل والحنين ، وتحكم الفطرة ، ودافع الغريزة .. كلها لا تدع زكريا يستسلم لليأس من الولد أو الزهادة فيه ، كما أن دينه الحق لا يمنعه أن يدعو إلى الله ، ويطرق باب الرجاء في فضل مولاه بالدعوات الصالحات أن يرزقه الذرية ، وهو إذ يلح في دعواته بالذرية مطاوعًا لفطرته ومستأنسًا بتوجيه دينه ، إنما هو جانح إلى البشرية في خصائصها البارزة ، وغير لائذ إلى مزاعم المتجردين ، من أن التبتل المتعمد من كمال التدين ومن شعار الأصفياء ، نعم ليس كذلك – فزكريا حينما وجد مريم تعيش في كنفه ، وتكلؤها رعاية الله ،

فيأتيها الرزق من حيث لا يدرى هو ، ومن أصناف لا يعهدها فى وقتها ، ولا فى جودتها ونضجها ، يجيش الأمل فى نفسه ، وتثور عنده الرغبة فى الذرية — فيضرع إلى الله مناديًا (رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . وماله لا يدعو وقد سمع من قبل ما دعت به أم مريم ثم رأى بعينيه كيف استجاب الله لها فى مريم وكيف يجرى كرم الله على مريم .

وإذن ، لا يبعد على الله أن يستجيب له ، وأن يرزقه ، وأن يكون ولده أحدوثة العجب والقدرة ، كما كانت مريم وابنها أحدوثة العجب والقدرة .

والقرآن يحكى أن زكريا دعا ربه فى صيغ عدة ، فمرة يقول : (رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين) .

وأخرى يقول : (رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) . وثالثة يقول : (رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًّا.وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرًا فهب لى من لدنك وليًّا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا) .

وهل كانت تلك الدعوات أو ما هو أكثر منها وفى معناها متعاقبة فى وقت واحد ؟

فهم بعض المفسرين هذا من قوله تعالى : (هنالك دعا زكريا ربه) وقوله بعد ذلك : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) فإن نداء الملائكة له بالبشرى وقع وهو فى مقامه من محراب مريم ، وجاء مقرونا بالفاء الدالة على القرب ، ثم اقترن بواو الحال فى قوله : (وهو قائم يصلى فى المحراب) .

فكأنه لم تمض مدة بين الدعاء والإجابة من الملائكة . وآخرون من المفسرين يرون بعد الإجابة عن الدعاء بأزمنة طويلة لذلك كرر دعواته ولم تكن فى وقت واحد ، وأما التعبير بالفاء فى قوله : (فنادته الملائكة) فلا يقصد منه

اقتران التلبية بالدعاء ، وإنما قصد منه الدلالة على القرب فى الوقوع حتى كأنه اقترن بالدعاء .

وكيفما كانت التلبية ، فقد تكررت روايتها فى القرآن ، ففى سورة آل عمران (أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين) وفى سورة مريم (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا) فالبشرى آذنت زكريا بأوصاف ربما كانت أكثر مما يرجو ، فإنه طلب ذرية طيبة ، وفسر الذرية بأن تكون وليًّا يرثه ، ويرث من آل يعقوب ، وليس له من ميراث سوى البركة ، والدين ، والخلق ، وأن يكون خلفاً طيبًا لسلف طيب ، يقوم بالهداية ، والإصلاح ، حتى لا يكون الأمر فوضى بين الأقربين لزكريا من أشرار بنى إسرائيل يتكالبون عليه ، ويتنازعونه بعد وفاته هو .

وبهذه البشرى قوى الأمل فى نفس زكريا ، وألحت عليه النزعة البشرية فى التعجب ، كيف يكون له ولد عرفه الآن باسمه يحيى ، وعرفه بصفاته ، بأنه لم يسبق إلى هذا الاسم ، وبأنه مصدق بكلمة من الله ، يعنى مؤمناً بنبى آخر يكون كلمة من الله ، وهذا تبشير بعيسى – ولم يكن عيسى ولدا – وعرفه بأنه سيكون سيدًا فى قومه ، وحصوراً عن النساء – وكانت هذه محمودة فى زمنه لأشخاص معينين – وعرفه فوق ذلك كله بأنه سيكون نبيًّا من الصالحين للدين والدنيا ، وفى نفسه وفى قومه .

كيف يكون له ذلك الولد ، وهو لا يعهد فى مثل زوجته أن تلد ، وهل سيكون الولد منها ، أو من زوجة سواها ، ولم يعد فى عمره متسع للاقتران بأخرى بعد ؟

ولكن الله سبحانه يزيده طمأنينة ، ويؤكد له البشرى بما يعجب من حصوله ، فتناديه الملائكة ثانيًا : (قال كذلك قال ربك هو على هين) الأمر

كما سمعت ، لا شبهة فى حصوله ولا استبعاد ، ثم ينبهه إلى سهولة ما عظم عنده بما جرى فى نفسه (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا) .

ولكن هذه البشائر وهذا التدليل لم تقف بزكريا عندما فيها من التفاؤل الأكيد ، بل زادته شغفًا بقرب الحصول ، فسأل الله آية على ذلك .

وفى كثير من هذه المراحل معان إنسانية ، فيها وجوه من الشبه بين الأنبياء وبين غيرهم من الناس .

* * *

الباب الرابع

بدنك أكثر الآلات كمالا وأحقها بالمعرفة

(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)

(التين)

عجائب جسم الإنسان[1]

أولا : العظام :

– يتكون جسم الإنسان من العظام والعضلات والأعضاء الرئيسية الحيوية وكلها أعضاء فى فريق يعمل متعاونًا .

– فى جسم الإنسان ٢٠٦ (مائتان وست عظمات) .

– فى الرأس وحدها اثنتان وعشرون من العظام مقسمة إلى مجموعتين (عظام الجمجمة وعظام الوجه) فعظام الجمجمة ثمانية وعظام الوجه أربع عشرة دون حساب الأسنان والأضراس والأنياب والقواطع طبعًا .

– ترتكز الجمجمة على عمود مكون من أربع وعشرين فقرة يسمى بالعمود الفقرى ، منها سبع فقرات علوية تسمى بالفقرات العنقية ، وهى أكثر الفقرات كلها مرونة حيث تسمح للرأس بأن يتحرك فى جميع الاتجاهات .

– تبرز الأضلاع من الاثنتى عشرة فقرة التى تلى الفقرات العنقية وتسمى بالفقرات الظهرية .

– الفقرات الخمس الأخيرة تسمى بالفقرات القطنية وهى تسمح للجسم بأن ينثنى إلى الأمام وإلى الخلف .

– والعجز الذى تحت الفقرة الأخيرة ثابت لا يتحرك وهو يقع بين عظمى الحوض اللذين يرتكز عليهما كل الجزء العلوى من الجسم .

---

(١) عن كتاب بهذا العنوان تأليف أنتونى رافييللى ترجمة وتصدير الدكتور على عبد الفتاح – دار القلم ١٩٦٢ – بتصرّف –

– عظام الفخذ هى أكثر عظام الجسم قوة وأثقلها وزنًا وهى تشبه العصا ذات العنق إلى حد كبير وقد خلقها الله سبحانه وتعالى مهيئة لتسمح للطرف السفلى بأن يتحرك فى جميع الاتجاهات ليستطيع الإنسان بذلك أن يجرى ويقفز ويرفس ويرقص .

– بين الركبة والكعب يوجد عظم الساق (القصبة والشظية) والأول قوى والثانى ضعيف وبالرغم من تساوى طوليهما فإن عظم القصبة وحده هو الذى يشترك فى تكوين مفصل الركبة وعند الطرف السفلى يتدلى العظمان (القصبة والشظية) ليكونا مفصل الكعب .

– المفصل الذى نطلق عليه اسم (الركبة) يساعد الساق على الحركة بسهولة ويسمح لها بأن تنثنى فى اتجاه واحد فقط ، ويصير محكماً عندما تكون الساق ممتدة ، وأمام المفصل يوجد غطاء الركبة ويسمى (عظم الردفة) لحماية الركبة وهى قطعة سائبة من العظم تتصل بالقصبة برباط عبارة عن شريط من نسيج متين جدًّا وبرغم مرونته فهو ليس مطاطاً وذلك يسمح للعظم المتصل به أن يتحرك بسهولة دون أن ينخلع .

– وعظام القدم الست والعشرون رصت على هيئة نصف دائرة مكونة بذلك قوسًا متكاملة وهى تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل كالأرجوحة ، وتساعد حركة القدم أصابع مرنة يمكنها أن تتحرك وأن تلتوى وأن تمسك ، وقد تقوست القدم حتى تكون أداة للارتكاز وتفصل عند الكعب حتى تستطيع الحركة .

– وللإنسان ترقوة واحدة على كل جانب . وعظم الترقوة هى حلقة الاتصال بين الجسم والذراع من الأمام ، أما فى الجزء العلوى من ظهر القفص الصدرى فتوجد عظمتا لوح الكتفين ، ولوح الكتف عبارة عن عظم منبسط مثلث ومنه يتدلى عظم العضد ، وهو أكبر عظم فى الجزء العلوى من الجسم ،

وهو مهيأ بحيث يمكن الإنسان من أن تلوى ذراعه أو تثنيها أو تلفها .

– ويتكون الساعد كما فى الساق من عظمين يجريان جنبًا إلى جنب وأكبرهما عظم الزند ، ويمتد من المرفق (الكوع) حتى رسغ اليد (المعصم) فى ناحية الأصبع الصغيرة (الخنصر) – وأصغرهما عظم الكعبرة الذى يكون مع عظم الزند مفصلى رسغ اليد والكوع .

– أما (الكوع) فيتكون من البكرة التى فى قاعدة عظم العضد وهى كمفصل الركبة .

– وعظام المعصم الثمانية وعظام الكف والأصابع التسعة عشر تجعل من اليد أكثر أداة مفيدة فى العالم . وتتصل اليد بالمعصم بوساطة مفصل ولذا يمكنها الحركة إلى أعلى وإلى أسفل وأن تلف وأن تنقلب والإبهام تستطيع أن تلمس أى أصبع من الأصابع الأربع الأخرى .

ولكل أصبع ثلاثة مفاصل عدا الإبهام فلها مفصلان .

ثانيا : العضلات :

– العضلات هى التى تكسب الجسم صورته الخاصة وهى تكسو كل عظام الجسم ويزيد عددها على خمسمائة عضلة ، وأينما يوجد عظم توجد العضلات التى تحركه ، وتتكون العضلات من عدة حزم من الألياف الوترية شد بعضها إلى بعض فى شكل رزم ، وهناك أوتار تحكم ربط العضلات بالعظم أو بالجلد أو بأى نسيج آخر ، ومثل العظام التى فى الهيكل نجد لكل عضلة عملها – ولكل عضلة فى الجسم عضلة تضادها فى نفس المنطقة، فكل عضلة تنى مفصل تواجه العضلة التى تعمل على استقامته، وهذا التناسق فى العمل يحدث فى جميع أجزاء الجسم، فليس هناك عضلة واحدة تتداخل مع عمل عضلة أخرى.

– العضلة حتى فى حالة سكونها فإنها لا ترتخى تمامًا بل تجدها دائمًا يقظة متوترة وبدون هذا التوتر يتدلى الفك وتتهدل الجفون ويتوقف التنفس .

– والعضلات ذات أشكال وأحجام عديدة حسب المهام المنوطة بها وموقعها فى الجسم .

– هناك عضلات قوية تمسك الفك السفلى بعظام الرأس الثابتة وهى العضلة الصدغية والعضلة المضغية التى ترفع الفك السفلى المتحرك ، وهناك عضلات أضعف منها تخفضه .

– وعضلات التعبير صغيرة ورقيقة ومنتشرة فى جميع أجزاء الوجه وهى تظهر بوضوح فقط عند تغير ملامح وجوهنا أو تقطب الجبين .

– لا يمكن للحيوانات الدنيا التعبير عن عواطفها لأنها ليس لديها إلا عضلات قليلة فى وجوهها .

– وعضلات الرقبة والوجه تمثل $\frac{1}{4}$ عضلات الجسم .

– من أهم العضلات التى تحرك الرأس العضلتان القصيتان الحلميتان من خلف الأذن عند قاعدة الجمجمة منحدرتان إلى أسفل على جانبى الرقبة حتى تلتقيا عند جذر الرقبة ، وبواسطتهما مع عضلات أخرى مساعدة يمكنك أن تدير وتثنى وتخفض وترفع الرقبة .

– وعضلة الكتف هى التى ترفع الذراع وتدفعها إلى الأمام وإلى الخلف ، وعضلة الصدر تخفض الذراع ، فكل عضلة تقوم بعمل واحد فقط ، ثم لابد من عضلة مختلفة لتقوم بعكس هذا العمل .

– وعضلات الأضلاع تعمل بصفة مستمرة كآلتين لرفع وخفض القفص الصدرى حتى تستطيع أن تتنفس فالعضلات بين الأضلاع الظاهرة ترفع والعضلات بين الأضلاع الباطنة تخفض .

– والجذع هو ذلك الجزء الواقع بين الكتفين والأرداف وعضلاته تغطينا كما تغطى القشرة الشجرة وتحميها وفى الجذع تقع جذور العضلات التى تحرك الرأس والذراعين والساقين والجذع نفسه . وأكبر عضلات الجسم توجد فى الظهر لتجعل العمود الفقرى مستقيماً .

– وفى الجزء الأمامى من جذعك يوجد جدار عضلى يقوم بحماية أعضاء الجهاز الهضمى وعملية انثنائك إلى الأمام وإلى الخلف قد اختصت بها العضلات الأمامية من جسمك .

– وفى الساقين والذراعين عضلات طويلة رفيعة مختصة فقط بالحركة ، وهى تتصل بعظام صممت لتتحرك بطرق عديدة .

– الغضاريف مادة مرنة ذات سطح يعمل كوسادة لتقليل احتكاك العظام .. وكل مفصل متحرك قد حفظ داخل تجويف محكم مكون من الغشاء الزلالى وهو طبقة من نسيج مبطن بطبقة أخرى أكثر نعومة .

– الغشاء الزلالى يفرز سائلا كثيفًا يعمل على تشحيم المفاصل المبطنة بالغضروف والتجويف المفصلى المحكم يمنع هذا (الزيت) من الهروب فتبقى المفاصل دائماً (مشحمة) فيتحرك الجسم بليونة دون أن يحدث صريرًا أو يبلى .

– مع كل خطوة تخطوها يتحرك ما يقرب من ثلاثمائة عضلة .

ثالثا : المخ والجهاز العصبى المركزى :

– يتكون الجهاز العصبى المركزى من المخ والنخاع الشوكى والأعصاب التى تمتد منه ، ويمكن مقارنته بمحطة اتصال كهربية ، فالمخ هو لوحة المحولات يستقبل الرسالات ويجيب عليها بصفة مستمرة ، والنخاع الشوكى هو الحبل الرئيسى الذى تمر خلاله الرسالات الواردة والصادرة ، والأعصاب هى

الأسلاك التى تجرى من الحبل الرئيسى إلى الأركان البعيدة فى الجسم غير تاركة أى جزء فيه دون جهاز إشارات .

– الرسالات الواردة تجيء عبر شبكة من الأعصاب الحسية وترسل الإجابات عن طريق شبكة أخرى مرافقة مكونة من الأعصاب المحركة .

– جميع الأنسجة الحية تتكون من أجزاء ميكروسكوبية دقيقة هى الخلايا والخلايا التى تكون الجهاز العصبى تسمى بالوحدات العصبية .

– ينقسم المخ إلى أقسام ثلاثة : النخاع المستطيل والمخيخ والمخ المقدمى . والمخ هو الذى يهيمن على أجزاء الجسم لتصبح وحدة متكاملة . والنخاع المستطيل هو ذلك الجزء المتضخم من النخاع الشوكى الذى يتكون بمجرد دخوله الجمجمة عند قاعدة المخ ، وهو أكثر أجزاء المخ عملا وفوقه وخلفه يوجد المخيخ ، ويبلغ حجم كرة اليد الصغيرة ، وهو يمكنك من السير والرقص والرياضة أو أن تقوم بأى شيء يحتاج إلى تناسق وتوازن .

– والمخ المقدمى عبارة عن فصين بهما تلافيف تميزه عن مخ الحيوانات الدنيا ، وقد تركزت فى المخ القدرة على أن تفكر وتتذكر وترى وتتكلم وتكتب وتتخذ القرارات . والمخ يبقى على اتصال بالعالم حوله بوساطة مساعديه (الحواس) .

– فالعين هى آلة التصوير التى تدله على شكل الأشياء وأين يجدها .

– والأنف ترسل للمخ الرائحة التى تدله على طبيعة الشيء .

– واللسان يدله بالذوق على طعم الأشياء .

– وخلال قناة الأذن تتحول الذبذبات إلى أصوات عندما تصل المخ .

– والجلد يبلغ المخ عن طبيعة ما يلمسه حارًّا كان أو باردًا وكذا أى ألم أو ضغط ، وحاسة اللمس أو الشعور منتشرة على سطح الجسم .

– والمخ يسجل فى ملفاته الضخمة صورة لكل عمل ، فإذا أردت النهوض من مكانك مثلا فإن المخ يحصل على الصورة فى جزء من الثانية ويتذكر بالضبط كيفية القيام بهذه العملية ويرسل أوامره للأعصاب الخاصة بهذا العمل دون سواها لتجد نفسك فى النهاية واقفًا بالرغم من أن المخ قد يكون قائماً بعمل عشرات الأشياء الأخرى فى الوقت ذاته وهذه الحركة هى ما نسميه بالحركة الإرادية .

– وبعض الرسالات التى ترسلها أعصاب الحس إلى المخ تعنون (مستعجل) وهذه هى رسالات الألم فعندما توخزك سن دبوس مثلا فى أصبعك ، فإن العصب الذى يحمل رسالة الألم إلى المخ لا ينتظر حتى يرى ما إذا كان المخ مشغولا بعمل آخر ، بل تقوم الأعصاب المحركة على الفور فتخطف عضلات اليد أو الأصبع بعيدًا عن الدبوس .. وهذه الحركة تسمى بالحركة الانعكاسية .

– والجهاز الانعكاسى فى المخ والنخاع الشوكى دائمًا على أهبة الاستعداد حتى لو كنت نائمًا فإنه دائماً يحميك ويحذرك .

رابعا : القلب ومجرى الدم :

– القلب هو المضخة التى تدفع السائل الدافئ الذى يسمى بالدم خلال جميع أجزاء جسمك .

– يتكون الدم من ملايين وملايين الخلايا أو الكرات الدقيقة المستديرة الحمراء والبيضاء عائمة فى البلازما .

– الكرات الحمراء تحمل الأوكسجين من الرئتين إلى الأنسجة والخلايا فى جميع أنحاء الجسم ، ولكل خمسة آلاف كرة حمراء يوجد ثمانى كرات بيض .

– الكرات البيض هى الجنود الفدائية التى تهاجم وتحطم كل الأعداء الذين يجرءون على اقتحام مجرى الدم ، إنها حرب حتى الموت والكرات البيضاء التى تسقط فى المعركة تتحول إلى مادة هى الصديد .

– يذهب الدم إلى الرئتين طلبًا لغاز هام جدًّا للحياة هو الأوكسجين .

– ويذهب الدم إلى الأمعاء ليحصل على مواد حيوية أخرى يحتاج إليها الجسم .

– الأنابيب التى تحمل الدم هى الشرايين والأوردة والشعيرات .

– يذهب الدم من القلب إلى الرئتين عن طريق الشريان الرئوى .

– يرجع الدم المحمل بالأوكسجين إلى القلب عن طريق الشريان الرئيسى (الأورطى) على الجانب الأيسر للقلب .

– عندما يصل الدم إلى نهايات الشعيرات يكون قد جمع كمية كبيرة من الفضلات أهمها ثانى أكسيد الكربون .

– يعود الدم إلى القلب عن طريق الأوردة ثم يرجع فى نفس الرحلة خلال الشرايين ، وكل رحلة من هذه تستغرق ثلاثاً وعشرين ثانية .

خامسًا : الرئتان :

– منذ اللحظة التى تنفست فيها الهواء لأول مرة حتى الآن لم تخل رئتاك منه أبدًا .

– الأضلاع وعضلاتها فى تمددها وانقباضها تجعل الرئتين تعملان كالمنفاخ ، فعندما تتمدد الرئتان يكون بهما فراغ نسبى فيندفع الهواء إلى الداخل ليملأ الفراغ ويأخذ الدم الأوكسجين من الهواء ويترك الغاز الفاسد وعندما تنقبض الأضلاع يدفع هذا الهواء الفاسد – غاز ثانى أكسيد الكربون – إلى الخارج .

– الأوكسجين يولد الحرارة التى لا يعمل الجسم بدونها ، وتبلغ حوالى ثمانية وتسعين درجة فهرنهيت .

سادسًا : الجهاز الهضمى :

إن جسم الإنسان فى حالة مستمرة من بناء وإصلاح واستبدال للأشياء التى يحرقها أو يستعملها .

– ومهمة القناة الهضمية هى تحليل الغذاء واستخلاص المواد الكيماوية التى هى فى حاجة إليها والتخلص من الفضلات ، وهذه تسمى بعملية الهضم .

– تشترك فى عملية الهضم أعضاء رئيسية هى الفم والمعدة والكبد والبنكرياس والأمعاء (الدقيقة والغليظة) .

– يساعدها إفرازات تأتى من غدد كثيرة كالغدد اللعابية فى الفم التى تساعد على تحول الطعام مع المضغ إلى كرة مهروسة معدة للبلع ، وهى بداية عملية الهضم ، وعند بلع الطعام يحمل عبر المرىء بطريقة نظامية إلى أسفل تجاه المعدة بوساطة سلسلة من الحركات تسمى الحركات الدودية العضلية .

– وفى المعدة تطحن عضلاتها الطعام وتخضه ، فى حين تفرز غددها أحماضًا هضمية أكثر قوة من اللعاب تجعل المواد الزلالية قابلة للهضم .

– وتستمر هذه العملية (الخض) فى المعدة ثلاث ساعات أو أربعًا .. وهى الفترة التى تستغرقها حتى نجوع من جديد .

– وفى الأمعاء تتم المرحلة الأخيرة من الهضم حيث يوزع الطعام بعد (هرسه ودهكه) على جميع الجسم عن طريق الدم .

– الأمعاء عبارة عن أنبوبة طويلة تبلغ خمسة أو ستة أمثال طول جسمك وهى لفائف تبتدئ عند الفتحة السفلى للمعدة ، ومبطنة كالمعدة بنسيج عضلى

يتقلص ويتمدد بصفة مستمرة .

– تتدفق الإفرازات من جدران الأمعاء (الاثنى عشر) كما تتدفق الصفراء من الكبد والعصارة البنكرياسية من البنكرياس فى المنطقة ذاتها وعلى طول رحلة تحرك الطعام إلى الأمام بطريقة شريطية تستخلص المواد الكيماوية المفيدة من الطعام ، وتشحن على الفور عبر شبكة المياه الشاسعة فى الجسم أو الشرايين إلى أنسجة الجسم الجائعة التى فى الانتظار .

– تدخل بقايا الطعام إلى القولون حيث تلفظ خارج الجسم .

سابعًا : الكبد والكليتان :

– تلعب الغدد دورًا هامًّا فى عملية الهضم وأكبر هذه الغدد هى الكبد .

– تقدم الكبد خدمة خطيرة للجسم فهى تساعد عملية الهضم بأن تفرز مادة تسمى بالصفراء تختزن فى كيس صغير .

– عملية تحطيم الطعام التى ابتدأت فى الفم والمعدة تستمر فى الأمعاء بمساعدة الصفراء وعصارة غدة أخرى هى البنكرياس حيث تتدفق الصفراء وعصارة البنكرياس عن طريق قناة مشتركة إلى (الاثنى عشر) .

– ترقب الكبد كذلك تيار الدم عن كثب وتخلصه من أية سموم يكون قد امتصها من القناة الهضمية وأى زيادة فى السكر ينتجها الجسم تختزن لتستعملها الكبد مستقبلا .

– باختزان الكبد أية كمية زائدة من الدم قد تغمر القلب تجعل القلب لا يتحمل أكثر من طاقته أبدًا .

– ترسل الأحماض الضارة فى الطعام إلى الكليتين عن طريق الدم ويفصل

الماء والأملاح والفضلات الزلالية من الدم بوساطة الكليتين عن طريق خلايا تقوم بمهمة المصفاة .

– تصب الأحماض الضارة بوساطة أنبوبة أنبوبة فى مستودع يسمى بالمثانة التى تفرغ بدورها عن طريق أنبوبة أخرى – تسمى قناة مجرى البول – إلى خارج الجسم .

ثامنا : الجلد :

– الجلد يكسو الجسم ويساعد على تنظيم حرارة الجسم بوساطة فتحاته والغدد العرقية التى به ، وهناك الشعر والأظفار التى تقوم أيضًا بمهام عملية وجمالية .

* * *

إن جسم الإنسان هو أبدع ما يمكن أن نعرف من آلات تؤدى عديد الأعمال .. ولكنها آلة عجيبة تحمل البذرة التى تعيد إنتاج نفسها بوساطتها .

إنها أكثر الآلات كمالا على الإطلاق وهى جسم الإنسان .

* * *

ولكن مهلا عزيزى القارئ ..

فإننا لم ننته بعد .. فإن الإنسان أحسن من أن يكون مجرد آلة عجيبة .

فالإنسان يحب .. ويكره .. ويريد .. ويقسو .. ويرحم .. ويعلم .. ويجهل .. ويؤمن .. ويكفر ... إلخ .

وهذه الهبات الروحية تجعل الإنسان فوق كل المخلوقات الأخرى .

وهذا هو موضوع الكتابين القادمين . (حقيقة الروح وحقيقة النفس) .

« طفل الأنابيب » ورأى علماء الإسلام

طالعنا العام الميلادى ١٩٧٨ بخطوة علمية جريئة هى حصاد مقدمات معملية طويلة ومعقدة حين نشر على العالم نبأ طفلة الأنابيب التى أمكن العلماء - بإذن الله - أن يحملوها من بطن أمها التى لا يكتمل جنين فى رحمها . لتنزل ضيفة فى فراشها الوثير المجهز فى المخابر والأنابيب حتى تستوى مخلوقًا مكتمل صفات الخلق ..

وقد أثارت تلك التجربة ضجة عالية ومناقشات طويلة بين كافة مستويات العقول وأصحاب الرأى من الأطباء والعلماء الباحثين ورجال الدين وغيرهم . وقد نبه بابا الغرب إلى تحريم ذلك فى الدين المسيحى فى حين طالعتنا آراء رجال الدين من علماء المسلمين إلى أن الإسلام لا يحرم إلا أن تكون نطفة الذكر لرجل غير الزوج أما إذا اجتمع ماء الزوج بماء الزوجة بقصد الإنجاب الشرعى فهو أمر لا يحرمه الدين خاصة إذا كان رحم الأم مكانًا غير صالح لحضانة الجنين ، فالإسلام يحض على الأخذ بالأسباب فإذا ما كانت المقدمات شرعية فإن النتائج شرعية وما الأنابيب إلا وسيلة وسيطة بين المقدمة الشرعية والنتيجة المرغوب فيها من الزوجين . كذا رأى الإسلام فى الإخصاب الصناعى إذا كانت النطفة للزوج . أما إذا كانت النطفة لغير الزوج فهو فى مقام الزنى .

وفى ذلك دليل لمن يعتبر أن الإسلام هو دين كل عصر وكل مصر ، وأن التقدمية من أبرز سمات هذا الدين الحنيف القيم الذى يؤكد العلم فى كل مجالاته أنه دين الحياة وأنه جاء هدى ورحمة للعالمين .

البـاب الخامس

هذا الإنسان ملاك أو شيطان ؟

(إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا)

(الإنسان)

هذا الإنسان ملاك أو شيطان

اختص الله الملائكة بصفة الطاعة وعدم عصيانه فخلقهم لهذه المهمة (لا يعصون الله ما أمرهم ..) واختص سائر مخلوقاته بتسخيرها جميعًا لنفع الإنسان واستفادته بها فى كافة شئونه وأغراضه ، واختص الإنسان بحرية الفكر والإرادة والتمييز وحمل الأمانة .. فكان ما كان من شأن الإنسان يرتقى فيكون خليفة الله فى أرضه .. وعبد الرحمن الربانى السالك دربه .. وينحدر فيرتد أسفل سافلين ومأساة الإنسان أنه معقد التركيب ، فالجسد تتصارع فيه شهوات الغضب والجنس والبطن .. والنفس توسوس بالهواجس والحقد والحسد وكل ما هو سوء . والعقل يلوم ويصحح ثم ينحرف فيخطط لكل الشرور .. والروح ذلك الشيء الربانى اللطيف ينزع به إلى الكمال والجمال .. والإنسان بين غضبه وشهواته ووساوسه ممزق بأمراضه وشوائبه ، والإنسان بصحة عقله وسمو روحه متفوق على الملائكة .. وهو بين تمزقه وتفوقه يتأرجح إلى أعلى وإلى أسفل مشدودًا بروحه ورأسه إلى السموات ومشدودًا من جسده ونفسه إلى أعماق الأرض .. فإذا تغلبت روحه وعقله كان ملاكا ، وإذا انتصر جسده ونفسه الأمارة بالسوء كان شيطانًا .

تقول صويحبات يوسف كما يخبرنا الله عنه (ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم) ثم ينحدر الإنسان فيقول سبحانه وتعالى عنه .. (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

فما هى تلك الآفات والعلل التى تجعل الملاك أضل من الأنعام ؟ وكيف تكون مواصفات الإنسان الكامل ؟

يقول بعض العلماء : [1]

ما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا يمكن الاستعانة بها عن طريق الوصول إلى الله تعالى ، فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد ضل ضلالا مبينًا . ذلك أنه عطل جملة هذه الأعضاء أو استعملها ، لكن فى مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أو فى عمارة طريقه دون منزله ، إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة .

ولقد اصطحب الإنسان فى خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك تراه قد اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية :

فهو من حيث سلط عليه الغضب يعمل أعمال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم ، وهو من حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص وما يدخل تحت هذا الوصف – وهو من حيث إنه فى نفسه أمر ربانى فإنه يدعى لنفسه الربوبية فيحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالأمور كلها ، بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة .

وبالجملة كل ما له اتصال بصفات الربوبية فإنه يدعيه ويحرص عليه ، ومن حيث إنه يختص بالتمييز عن البهائم مع مشاركته لها فى الشهوة والغضب حصلت فيه شيطانية فصار شريرًا يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى

---

(١) الشيخ محمد الفقى فى كتابه النفس أمراضها وعلاجها – فى الشريعة الإسلامية – مكتبة صبيح ١٣٩٠ هـ .

الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين .

فأما الصفات التى تتولد من طاقة الشهوة فيصدر عنها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والعبث والمجون والحرص والجشع والملق والحقد والحسد والشماتة وغيرها مما يلحق بها ..

وأما طاعة الغضب فيتولد عنها صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف ، وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها مما تنطبق عليه صفاتها .

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والغش والخب والخنا وأمثالها مما يجرى عليه حكمها .

لذا فطاعة الله تعالى إنما تكون بمخالفة الشهوات .. فمن أقبل على المعاصى اسود قلبه ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكنه ينقص نوره كالمرآة ، التى يتنفس فيها ثم تمسح ويعود فيتنفس فيها ثم تمسح فإنها لا تخلو عن كدورة .

يقول ﷺ :

القلوب أربعة : « قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها .. وفى رواية ذهبت به » .

وقال ﷺ :

« فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى وليحمده على ذلك .. ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . » ثم تلا قوله تعالى : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) .. الآية .

قال الحسن البصرى : إنما هما همّان يجولان بالقلب ، همٌّ من الله تعالى وهمٌّ من العدو ، فرحم الله عبدًا وقف عند همه ، فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده .

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

وقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله شيطان ، قال : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمر إلاّ بخير » .

ذلك أنه متى غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى ودوافع النفس وجد الشيطان مجالا للوسوسة فقام بها وحقق تلك الأهواء وجال جولانا سريع الوقع بالغ الأثر والتأثير ، وإذا انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاقت به السبل وعز عليه الحال وهنا انفتح الباب فأقبل الملك وألهم .

وقد روى أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية فكتب إليها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا

ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالى حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني . فكتبت إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : « فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك ، فصم الدهر وليكن فطرك الموت ، وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خوّلك وأضعافه، ما سر نى أن أشتغل به عن الله طرفة عين ».

وهذه إشارة منها إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى نقصان .. وأن الإنسان الكامل هو الذى يرعى حق الله فى استخلافه له سبحانه فى الأرض .

الإنسان ليس وحده فى هذا العالم

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق فى صور متعددة الخلق والخلق .. فالإنسان من تراب .. ثم من نطفة من منى يمنى .. ، والملائكة من النور .. والجان من مارج من نار .. كذلك فإن الإنسان يتأرجح بين درجات ربانية وينحدر إلى مدارك سفلية شيطانية فى حين أن الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وهم متفاوتون فيما سخروا فيه من مهام الخير وميادينه وليس للشر سبيل إليهم وليس لهم سبيل إليه وهم فى هذا يختلفون عن الجان الذى يجوز عليه الخير والشر ..

والقرآن يذكر لنا فى آياته العديد من المواقف والصفات لعدد من خلق الله من الأرواح الخفية كالجن والملائكة وإبليس .. وهى مخلوقات لم يكد العلم الحديث بكل إمكانياته يجلوها وإن كان القرآن قد سبق العلم فى هذا المضمار

عشرات المئات من السنين .. وذلك من إعجاز القرآن وتأكيد أنه من عند الله ..

فالقرآن يؤكد لنا أن الإنسان ليس وحده فى هذا العالم فهناك مخلوقات غير مرئية ورد ذكرها فى عديد من الآيات وأكدت بحوث الذرة وطاقاتها ومكوناتها .. وجود هذه المخلوقات التى تتكون من مواد غير مرئية للعين البشرية .. لأنها مواد غير تلك التى يتكون منها الإنسان .. فالإنسان يحترق بالنار فيفنى ولكن القرآن يؤكد لنا فى عبارات موجزة بليغة أن الجان خلق من نار .. وأن الملائكة خلقت من نور .. وأن الشيطان يرانا ولا نراه هو وقبيله ..

وفى هذه الصفحات القليلة نعرض عجالة فى بيان هذه المخلوقات :

(١) الملائكة

والملائكة مخلوقات ربانية خلقت من النور .. وقد يجيئون فى صورة البشر فهكذا نعرفهم فى قصة إبراهيم وقصة لوط .. وكذا فى قصة زكريا ومريم .. غير ان الإنسان وإن رآهم فى هيئة البشر فإنه لا يعرف أنهم من الملائكة إلا بعد حين .. فإبراهيم عليه السلام قدم لهم عجلا حنيذًا طعامًا لهم ولكنه خاف منهم حين وجد أيديهم لا تصل إلى طعامه .. قالوا : (لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) .

(ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات) . فخاف على ضيوفه (قال يا قوم هؤلاء بناتى هنَّ أطْهَرُ لكم). ولا تؤذونى فى ضيوفى.. ولكن قومه قالوا : (إنك لتعلم ما نريد) .. وهنا فقط تطمئنه الملائكة وتخفف روعه .. (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من

الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم) .

كذلك نرى الملائكة فى قصة مريم فى زى البشر : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًّا) .

كذلك فى أمر زكريا الذى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب يبشرونه بيحيى الذى لم يجعل الله له من قبل سميًّا والذى يؤتى الحكمة صبيًّا .. كذلك تدخل الملائكة على داود فيفزع .. وكذلك أيضاً يقوم الملكان هاروت وماروت بتعليم الناس السحر ويقولان لهم إنما نحن فتنة .. وتتميز الملائكة بصفة الطاعة لله دون معصية ولهذا يأمرنا الله أن نؤمن بملائكته استكمالا للإيمان به ، ويعلمنا أن الكفر بها ضلال مبين . والرسول ﷺ يقول : « خلقت الملائكة من نور .. وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وكونهم من النور نزههم عن الوقوع فى الشهوات والمعاصى فهم يسبحون بحمد الله ويقدسون له .. وهم لا يستكبرون فيسجدون لآدم .. ويعترفون أنه لا علم لهم إلا ما علمهم العليم الحكيم .

وإذا كان من الإنس والجن ذكور وإناث فإن الملائكة من عباد الله وليسوا إناثا فهم من جنس واحد .

يقول تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خَلْقَهم ستكتب شهادتهم ويسألون). وعدد الملائكة لا يمكن التحقق منه، ولكنّ هناك أمرا يثير الرغبة فى المعرفة، ذلك أن لفظ الملائكة تكرر ٦٨ مرة فى القرآن وهو عدد يساوى تماماً عدد مرات ذكر الشيطان .. ذلك برغم أن اللفظين لم يقترنا فى آية واحدة . أما علة المساواة فى الأعداد فالأمر فيه عند الله وحده . وواضح أن رسالة الملائكة خير محض كما أن رسالة إبليس الشر المحض .

(ب) الجان

يقول الله تعالى : (وخلق الجان من مارج من نار) .

ويقول تعالى : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

ويقول تعالى : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

ويقول سبحانه : (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

ويقول تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) .

وتتعدد الآيات التى تذكر الجن مفردا وجماعة وأممًا .. وتتعدد الصور والمواقف التى يتعرض لها الجن فى القرآن .. فهو يرفض السجود لآدم فى شخص إبليس .

وهو يأتى لسليمان بعرش بلقيس ملكة سبأ فى شخص واحد من الجان .. وهو يستمع إلى القرآن فى شخوص نفر من الجن .. فمنهم الجن المؤمنون بالله .. ومنهم إبليس اللعين .. يؤيد ذلك : (وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددًا) .

وأيضًا (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا) .

فقد خلق الله الجن والإنس ليعبدوه . فمنهم من اهتدى ومنهم من ضل فكان

شيطانًا ويدل على ذلك الآية : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا) .

وفى تفسير القرطبى : روى جبير بن نفير عن أبى ثعلبة الخشنى - واسمه جرثوم - أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أثلاث فثلث لهم أجنحة يطيرون فى الهواء - وثلث حيات وكلاب - وثلث يحلون ويظعنون » . وروى أبو الدرداء واسمه عويمر قال : قال رسول الله ﷺ : « خلق الجن ثلاثة فثلث كلاب وحيات وخشاش الأرض وثلث ريح هفافة -- وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب .. وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث : فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين ، وثلث فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله . ويستطيع الجن التمثل فى عديد من الصور والهيئات للمخلوقات الحية كالإنسان والحيات والفيران وغيرها . ومنهم الذكور والإناث فهمْ يتناسلون .. ومنهم أعداد تماثل أعداد بنى البشر حيث تدل الآية : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) . ويتكرر ذكر عبارة (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) كذلك جاء فى النص القرآنى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) فكلمة يا معشر تدل على كثرتهم .. وكلمة لم يطمثهن تدل على تزاوجهم وكلمة برجال تدل على أن منهم رجالا وإناثا ..

كذلك فإن مما يدل على تمثلهم الهيئات قوله (ﷺ)

« من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل بى) .. وهذه القدرة على التمثل هى خارق قدرات الجن كقدرته على لمس السماء حيث تدل الآية : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا . وأنا كنا نقعد منها

مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا) ويقول تعالى : (وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

فائدة : فى قصة سليمان دليل على أن الذى عنده علم من البشر المؤمنين يمكن أن يؤيده الله بقدرات تفوق قدرات الجن بتأييد الله له حيث أتى بالعرش قبل أن يرتد رمش العين إليها ذلك الإنس الصالح فى حين أن الجن عرض على سليمان أن يأتى بالعرش فى مدة أطول من ذلك .

(حـ) الشياطين

ذكر الشيطان بلفظه فى القرآن ٦٨ مرة - وشيطانًا مرتين - والشياطين بلفظها ١٧ مرة وشياطينهم مرة واحدة والشيطان هو ذلك المخلوق النارى الجبار المتصف باللعنة والكبر والإضلال والإزلال يعد الفقر ويأمر الفحشاء ويستذل الناس بما كسبوا ويوقع بينهم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويزين للعاصين أعمالهم ويضلهم ضلالا بعيدًا فمن اتخذه وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا .

والشيطان كما يكون من الجن يكون من بعض الإنس وهو (الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) .. وقد وسوس لآدم وحواء فأخرجهما مما كانا فيه فى الجنة وأزلهما عنها .. فهو للإنسان عدو مبين وهو لله عصى من الكافرين... وما من رسول أو نبى تمنى قبل محمد ﷺ إلا ألقى الشيطان فى أمنيته ولكن الله أعان النبى محمدًا ﷺ على شيطانه فأسلم ولكنه وسوس لآدم وحواء وموسى وأنسى يونس الحوت وتلت الشياطين على ملك سليمان .. والله تعالى يقول (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًّا شياطين الإنس والجن) .

وقد ورد اسم الشيطان (بالألف واللام) فى الديانات الثلاث .. والرأى

الغالب أن كلمة (الشيطان) عبرية ما لم يكن قد سبق اليهود إليها أحد من المشارقة .. والأرجح عند العقاد أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية حيث اشتملت اللغة العربية على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ففيها مادة (شط - شاط - شوط - شطن) وهى كلمات تحمل معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق .. وهى معان شيطانية .

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان وذكر اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية ويؤخذ من سفر أيوب - وهو عربى باتفاق المؤرخين - وكذا يؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فهو ليس مجرد اسم معرب .

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر (إبليس) .. (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) . والإبلاس فى العربية فقد الرجاء وتدليلا على هذا المعنى نقول فى كلامنا « أمل إبليس فى الجنة » أى فقده الرجاء فيها .. ذلك بعصيانه الله حين أمره أن يسجد لآدم .. وجنوده من الإنس والشياطين والمردة من الجن يضلون الناس ويأتونهم من كل اتجاه وبكل الأساليب .. وبعض الشياطين قرناء للناس أما البعض الآخر من القرناء فمن الجن الذين ليسوا شياطين .. ويؤكد العلم الحديث أن وسوسة الشيطان للإنسان لا تقف عند حد حتى إنها لتحثه على قتل نفسه والقضاء عليها ليس فقط على قتل غيره ، وشيطان الجن أقدر فى الوسوسة من شيطان الإنس (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) ولذا جاء متقدمًا عليه فى الآية . وواجب الإنسان أن يستعيذ الله كلما نزغه نزغ من الشيطان .. ويقول « ديل كارنيجى » : لماذا لا نتجه إلى الله إذا استشعرنا القلق ؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن فى أشد الحاجة إلى هذا الإيمان ؟ ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون ؟ .

الباب السادس

الإنسان الكامل

(ولقد كرمنا بنى آدم ...)

(الإسراء)

معجزة ميلاد المسيح عيسى بن مريم[1]

يقول موريس بوكاى :

إن الأناجيل (كالقرآن) تعطينا نفس المعطيات عن أصول المسيح البيولوجية . إن نمو المسيح فى رحم أمه قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كل الكائنات البشرية .

فالبويضة التى أنتجها مبيض أمه لم تحتج للالتقاء بحيوان منوى من أبيه ليشكل جنينًا ثم طفلا قابلا للحياة . إن الظاهرة التى تؤدى إلى ميلاد الكائن الحى دون تدخل من العنصر المخصب الذكر ، تسمى بالتلقيح الذاتى Parthenogenese ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتى فى عالم الحيوان تحت ظروف معينة ، وتلك حالة حشرات متنوعة وبعض اللا فقريات وهى تخص أيضًا حالة جنس منتقى من الطيور ولكن هذا استثنائى جدًّا . وقد أمكن بالتجربة عند بعض الثدييات ، أنثى الأرنب مثلا ، الحصول على بداية لتطور البويضة إلى حالة جنينية فى مرحلة أولية جدًّا دون إدخال حيوان منوى . ولم يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا ، ولا يعرف عند هذه الثدييات أى مثال لتلقيح ذاتى مكتمل لا بالتجربة ولا بالطبع . أما المسيح فهو حالة خاصة . فقد كانت مريم أمه عذراء . وقد احتفظت بعذريتها ولم تلد أطفالاً غير المسيح . إن المسيح استثناء بيولوجى .

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم . موريس بوكاى ص ١٠٤/١٠٥ – ترجمة – الناشر دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٧٧ .

ومن تمام الفائدة أن نقول[٢] إن القرآن حين تكلم عن نسب المسيح ذكر لنا أنه (المسيح عيسى بن مريم) ذلك أنه وحيد أمه مريم وليس له أب بيولوجى .. فكان من الضرورى أن يكون نسبه من جهة مريم ، أما ما نراه فى الأناجيل من نسب المسيح فنرى اختلافاً بين نسبه فى إنجيل متى ، ونسبه فى إنجيل لوقا[٣] وهى مشكلة تتعلق بالمعقولية وبالاتفاق مع المعطيات العلمية . ففى حين يذكر إنجيل متى (حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد) أن أصول عيسى المسيح ابن داود بن إبراهيم تنتهى بأنه بن يوسف رجل مريم التى ولد منها عيسى الذى يدعى المسيح ، وأن عدد الأجيال هو أربعة عشر جيلا من إبراهيم إلى داود ، وأربعة عشر جيلا من داود إلى المنفى بابل وأربعة عشر جيلا من المنفى بابل حتى المسيح ، فإن إنجيل لوقا (٣ - ٢٣ /٢٨) حسب نفس الترجمة يعطى المسيح نسبًا مختلفًا حيث ذكر فى نهاية نسب المسيح أنه بن آدم بن الله فى حين أن متى لا يذكر أى اسم قبل إبراهيم .

وفى رأينا وبغض النظر عن تلك المشكلة أن الله سبحانه الذى خلق آدم من تراب دون أب أو أم وخلق حواء من آدم دون أم وخلق عيسى بن مريم دون أب هو خالق كل شىء بأمره وحسب مشيئته (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

---

(٢) رأى المؤلف .

(٣) التفصيل فى المرجع السابق ص ١٠٦/١٠٧/١٠٨/١٠٩/١١٠ .

ميلاد محمد رسول الله

على ما نقل السهيلى فى الروض الأنف أن ميلاد الرسول ﷺ كان بعد خمسين يومًا من عام الفيل فى حين ذكر البعض عن (ابن عباس) أن المولد كان يوم الفيل واكتفى البعض بقوله كان عام الفيل .. وكانت أمه (آمنة بنت وهب) بنت سيد بنى زهرة وأفضل فتيات قريش نسبًا وموضعًا ، وأبوه (عبد الله بن عبد المطلب) ابن سيد بنى هاشم (المفتدى) على نحو يذكر بجده الأعلى إسماعيل .. ذهبت آمنة بغرة النور فى عبد الله فلم تترك لغيرها من النساء فيه مأربًا .. وكانت الرؤى قد عاودت (آمنة) فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ويأمرها أن تقول حين تضعه : « أعيذه بالواحد من شر كل حاسد » ثم تسميه محمدًا[٤] .

وجاءها المخاض فى أوان السَّحَر من ليلة الاثنين فأحست ما يشبه الخوف لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعًا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها .. فحسبتهن من بنات هاشم وما هن سوى أطياف سارية ، فكأنها رأت فيهن (مريم بنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم إسماعيل) .. وما كاد نور الفجر ينبثق حتى كانت قد وضعت وليدها .. ومضت ساعة وبعض ساعة وهى لا تفتأ ترنو إلى طلعته البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها إياه .. ثم رحل .

---

(٤) أم النبى – د/بنت الشاطئ – دار الهلال – الطبعة السادسة سنة ١٩٧٢ .

وفى الصباح أرسلت إلى جده (عبد المطلب) تنبئه بمولد حفيده فأقبل مسرعاً ، وقد وعى كل ما ألقت على سمعه مما رأته وسمعته حين الوضع .. وحمل عبد المطلب حفيده بين ذراعيه وهو يطوف بالكعبة شاكرًا لله .. ثم رده إلى أمه وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة .. وأعتق عمه (عبد العزى بن عبد المطلب[٥]) جاريته ثويبة الأسلمية حين بشرته بمولده .. وبميلاده ﷺ زيدت السماء حفظا ورد عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورجمت الجن وتدلت إليه ﷺ الأنجم الزهرية وخرج معه نور أضاء قصور الشام القيصرية ، وانصدع إيوان كسرى وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسرى وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية .. فقد ولد الهدى ونبي الرحمة .. وأقبلت آمنة ترضع الوليد المصطفى ريثما تفد المراضع ولكن لبنها جف بعد أيام فدفعت به إلى ثويبة جارية عمه عبد العزى التى أعتقت .. وكانت ثويبة قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطلب بلبن ابنها مسروح[٦] . ثم لم تمض إلا أيام معدودات حتى وفدت المراضع من بنى سعد يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش .. فعرض عليهن محمد بن عبد الله فزهدهن فيه يتمه . وشق ذلك على آمنة .. ولكن حليمة السعدية عادت تطلبه بعد أن كانت قد انصرفت عنه أول النهار .. ومنذ احتضنته حليمة فتح الله عليها بركات من السماء والأرض حتى كانت محل حسد رفيقاتها ممن كن قد زهدن محمدًا .

* * *

---

(٥) باء عبد العزى بالكنية الملعونة « أبى لهب » ونزل فيه قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب ..) السورة

(٦) السيرة الحلبية ١ /٨٥ .

ومضى الرضيع المبارك ينمو ويترعرع فى صميم البادية بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها .. وبقيت آمنة تنتظر عودة ابنها بعد فصاله .. لكن أوان فطامه كان يدنو رويدًا .. ولعل آمنة همت أن ترسل إلى حليمة فى طلب وليدها .. لكن حليمة لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز فلم تكد أمه المتشوقة تراه حتى التزمته معانقة وتشبثت به فى حضنها لا تريد له أن يبتعد عن قلبها الخافق .. ولكن حليمة التى سعدت ببركاته وقد أحست بفرحة آمنة به - راحت تحدثها عن جو مكة وكان إذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة - وطلبت إلى آمنة أن تعيد إليها محمدًا الذى تخشى عليه وباء مكة (٧) .. وأنكرت آمنة ما سمعته من حليمة .. ونظرت إليها عاتبة . لكن حليمة لم تيئس ولم تتراجع بل ألحت فى استصحاب الصبى متوسلة إلى والدته بكل ما فى أمومتها من حنان وإيثار .. وتجلدت آمنة للموقف الصعب ونظرت كيف أن وليدها بصحة وعافية كسبها من جو البادية فودعت آمنة ولدها للمرة الثانية إيثارًا لصحته على لهفتها عليه وشوقها إليه ..

باب ما جاء فى خلق رسول الله ﷺ (٨)

- عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول :

كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، ولا بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط ، بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة أقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين

(٧) السيرة لابن هشام (١ / ٧١٣) .

(٨) الإتحافات الربانية بشرح الشمايل المحمدية للترمذى - تأليف أحمد عبد الجواد الدومى - التجارية الكبرى - الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ .

سنة وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء » .

– عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الجسم ، وكان شعره ليس بجعد ولا سبط ، أسمر اللون ، إذا مشى يتكفأ (كأنه يتمايل يمنة ويسرة) .

– وعن أبى إسحق قال : سمعت البراءبن عازب يقول : كان رسول الله ﷺ رجلا مربوعا ، بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه . (الجمة : ما سقط من شعر الرأس ووصل إلى المنكبين (الكتفين) .

دعاء : كان ﷺ كثيراً ما يدعو : « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى » .

– عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « لم يكن النبى ﷺ بالطويل ولا بالقصير ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم الرأس ، ضخم الكراديس ، طويل المسربة ، إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب ، لم أر قبله ولا بعده مثله .

(شثن : خشنة صلبة عند الحرب لينة ناعمة فى السلم – الكراديس : رءوس العظام – المسربة : الشعر الدقيق الذى يبتدئ من الصدر وينتهى بالسرة) .

– عن عمر بن عبد الله مولى غفرة قال : حدثنى إبراهيم بن محمد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كان على إذا وصف رسول الله ﷺ قال : لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، لم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط ، كان جعدًا رجلا . ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، وكان فى وجهه تدوير ، أبيض ، مشوب ، أدعج

العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المشاسن والكتد ، أجرد ذو مسربة ، شثن الكفين والقدمين إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس صدرًا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ،

وعن الحسن بن على رضى الله عنه قال : سألت خالى هند بن أبى هالة ، وكان وصافًا عن حلية النبى ﷺ ، وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئًا أتعلق به فقال : كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من الربوع وأقصر من المشذب ، عظيم الهامة ، رجل الشعر ، إن انفرقت عقيقته فرقها ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه ، إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادن متماسك سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة ، بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن ما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أو قال شائل الأطراف ، خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال قلعًا ، يخطو تكفيًا ، ويمشى هونًا ، ذريع المشية إذا مشى ، كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعًا ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض ، أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدر من لقى بالسلام .

حديث الرسول ﷺ فى وصف خلق بعض الأنبياء

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ﷺ) قال : عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، « قبيلة بين اليمن وقحطان رجالها متوسطون بين الخفة والسمن » ، ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود ، رجل أرسلته قريش إلى النبى ﷺ يوم الحديبية ثم أسلم ودعا قومه للإسلام فقتلوه وهو أحد الرجلين اللذين قالت فيهما قريش (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وجاء فى وصف مسلم أنه كان آدم كأحسن ما أنت راء من آدم وكان ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس حمام ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم يعنى نفسه – ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهًا دحية (كان إذا نزل قرية اشتاق الرجال والنساء لرؤيته وكان دحية رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل .

* * *

علة خلق الإنسان

يقول تعالى فى سورة الذاريات :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات)

ويقول القرطبى فى تفسير الآية :

قيل : إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده ، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص .

المعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون .

قال القشيرى : والآية دخلها التخصيص على القطع لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة . وقد قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس) (الأعراف) ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم وهو كقوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا) (الحجرات) وإنما قال فريق منهم . ذكره الضحاك والكلبى والفراء والقتبى . وفى قراءة عبد الله : (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون) وقال على رضى الله عنه : أى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (لآمرهم بالعبادة) واعتمد الزجاج على هذا القول ويدل عليه قوله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا) (التوبة) فإن قيل كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته ؟ قيل قد تذللوا لقضائه عليهم لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون على الامتناع منه ، وإنما خالفهم من كفر فى العمل بما أمره به ، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع . وقيل : (إلا ليعبدون) أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعًا أو كرهًا . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس . فأنكره ما يرى فيهم من أثر الصنعة .

قال مجاهد : إلا ليعرفونى ، قال الثعلبى : وهذا قول حسن ، لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجود توحيده ، ودليل هذا التأويل قوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) (لقمان) (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) (الزخرف) وما أشبه هذا من الآيات . وعن مجاهد أيضًا : إلا لآمرهم وأنهاهم . وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء منهم للمعصية ، وعن الكلبى أيضًا . إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده فى

الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء . يدل عليه قوله تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) (لقمان) الآية : وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل المعنى : إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ، وأصل العبودية الخضوع لله .. والتعبد : التمسك .. فعلة خلق الله للإنسان هى أن يكون الجن والإنس مسخرين لعبادة الله أى طاعته والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتلك هى الغاية .. فالله سبحانه لم يخلقهم طلباً لرزق أحد أو طعامه فهو الرزاق ذو القوة المتين .

الإنسان الكامل[٩]

ما مهمة الإنسان فى هذه الأرض ؟ وما منزلته بين الخلائق التى خلقها الله عز وجل فى هذا الوجود ؟ يقول الله تعالى فى سورة الإسراء : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ذكر الله عز وجل أنه حين خلق الإنسان الأول – وهو آدم أبو البشر – أسكنه الجنة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) ، فكان جزاؤه أن طرده الله من الجنة ، وتوعده بالعقاب الشديد ، فخرج منها وهو يضمر العداوة لآدم ، وآلى على نفسه أن يفسد عليه وعلى بنيه حياتهم ، وأن يغويهم ويستهويهم بكل أساليب الخداع والمكر ، حتى ينحرف بهم عن طريق الخير إلى طريق الشر ، ويعدل بهم عن

(٩) من كتاب صور من حياة الرسول – أمين دويدار – دار المعارف – الطبعة الرابعة .

أسباب السعادة إلى أسباب الشقاء ، وتمنى على الله أن يؤخره إلى يوم القيامة ، حتى يؤدى هذه المهمة التى رصد حياته لها ، وعاهد نفسه عليها ، فأجابه الله عز وجل ، إلى ما تمنى ، وقال : (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا)[١٠] .

وهكذا بلغ الشيطان أمنيته فى البقاء ، وأخذ يعمل فى الكيد لآدم حتى استطاع أن يخرجه من الجنة كما خرج هو منها ، وهبط آدم والشيطان إلى الأرض وكل منهما يضمر العداوة لصاحبه .

ماذا كانت مهمة الإنسان فى الأرض .. ؟ يقول الله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون)[١١] .

كانت مهمة الإنسان إذن أن يكون خليفة الله فى الأرض ، ليقيم فيها الحق والعدل ، ويعمرها بالخير والسلام . وكانت مهمة الشيطان أن يصرفه ما استطاع عن بلوغ هذه الغاية . ومنذ ذلك العهد البعيد والصراع بين الإنسان والشيطان قائم فى الأرض ، لا يخلو منه مكان ولا زمان ، وهى معركة الخير والشر ، التى أراد الله لها أن تظل دائرة حتى تقوم الساعة .

* * *

قد يقول قائل : ولماذا أراد الله لهذه المعركة أن تدوم فى الأرض ، مادام

(١٠) سورة الإسراء ٦٣/٦٥ .

(١١) سورة البقرة : ٣٠ .

سبحانه يريد أن يعمرها بالخير والسلام ؟ ولماذا سلط الشيطان على الإنسان وقد اختاره ليكون خليفته فى إقامة الحق والعدل ؟ ولماذا لم يذلل له الطريق ويحول بين الشيطان وبينه . حتى يتسنى له أن يصل إلى الغاية التى أرادها له ؟ وإذا كان الشيطان قد سلح بكل قوى الإغواء ليصرف الإنسان عن غايته ، فهل سلح الإنسان بما يقاوم هذه القوى حتى يحقق الغاية من وجوده ؟

* * *

هذه أسئلة قد تدور فى الرءوس وتجرى فى الخواطر ، وقد يدور غيرها وغيرها حول هذه المشكلة . ولكى نستطيع الجواب عنها ينبغى أن نقف قليلا حتى ننظر فى طبيعة الإنسان وفطرته التى فطره الله عليها .

يقول الله تعالى : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون[١٢]) ويقول سبحانه : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون[١٣]) .

ومضمون هذا أن الإنسان خلق من عنصرين : عنصر أرضى ، وهو عنصر الطين الذى يشترك فيه مع سائر الخلائق التى تدب على الأرض ، من حيوان وطير وحشرات وهوام ، وعنصر سماوى . هو هذه النفخة الروحية التى كرمه الله

---

(١٢) سورة السجدة : ٧ – ٩ .

(١٣) سورة البقرة : ٣١ – ٣٣ .

بها ، وأودع فيها سر المعرفة التى امتاز بها الإنسان ، وصار قادرًا على أن يدرك مالا يدرك غيره من الخلائق التى تشاركه الحياة فى الأرض . وهو ما يشير إليه قوله سبحانه : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) . وقوله جل شأنه : (وعلم آدم الأسماء كلها ..) .

فبمقتضى العنصر الأرضى فى الإنسان ركبت فيه الغرائز التى يحتاج إليها الجسم فى نموه وسلامته وصلاحيته للحياة . وهى غرائز يشترك الإنسان والحيوان فى كثير منها : فكلاهما جسم يتركب من عظم ولحم ودماء وعروق وأعصاب وغير ذلك ، وكلاهما يحتاج إلى الغذاء الذى يقيم حياته ، وإلى القوة التى يقى بها نفسه ، وإلى التناسل الذى يحفظ به نوعه ، وكلاهما يندفع بحكم غرائزه إلى السعى فى سبيل قوته . وإلى القتال فى سبيل حياته . وإلى التزاوج فى سبيل نوعه . وتحت تأثير هذه الغريزة ينشأ ما يكون فى الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة . وما يترتب على كل ذلك من مظاهر الطمع والظلم . والشح والأنانية . والاندفاع مع الشهوة ، والميل مع الهوى .

فالإنسان من هذه الناحية المادية يستوى مع الحيوان فى الاندفاع الغريزى نحو الحياة . ولكن العنصر الروحى فيه يرفعه عن مستوى الحيوان ، ويجعله بحيث يستطيع أن يتحكم فى غرائزه ويهيمن عليها ، وبحيث يملكها ويستخدمها على بصيرة وهدى ، فى كل ما يقيم حياته على الأساس الذى يليق به كإنسان ، فهو لا يندفع مع الغريزة اندفاعًا أعمى كما يندفع الحيوان ، بل يستخدم كل ما وهبه الله من القوى العاقلة فى الهيمنة عليها والانتفاع بها . حتى تؤدى أغراضها فى غير ما ضرر به ولا بالمجتمع الذى يعيش فيه .

وفى الإنسان من هذه القوى قوتان بارزتان هما « العقل والإرادة » فالعقل هو القوة المدركة التى يستطيع الإنسان بها أن يدرك ويعقل ، ويميز الخير من الشر

والنافع من الضار . والإرادة هى القوة العاصمة التى يستطيع بها أن يضبط حركاته وسكناته ، فلا يقدم ولا يحجم ، ولا يفعل ولا يترك ، ولا يتكلم ولا يصمت إلا على هدى العقل وإرشاده ، لا على دفع الغريزة وانطلاقها . فالإنسان بهاتين القوتين ليس عبدًا لغرائزه ، بل هو ملك عليها ، يحكمها ولا تحكمه ، ويوجهها ولا توجهه ، وهذا فرق ما بينه وبين الحيوان الأعجم . وبمقدار ما يحسن الإنسان من استخدام هاتين القوتين ، يكون الفرق بينه وبين الحيوان .

هذا إلى قوة ثالثة كرم الله بها الإنسان وميزه على غيره : هى « الضمير » .. وهى قوة لها اعتبارها بين قوى الإنسان ، لأنها قوة خيرة ، توجه دائمًا إلى الخير وتزع عن الشر ، وتهيمن على الإنسان فى كل أحواله ، وتراقبه فى كل أفعاله ، وتنزع به إلى الندم إذا وقع فى الإثم ، وتمعن فى إيلامه وتبكيته إذا تمادى فى الغواية . وقلما خلا إنسان من وخز الضمير مهما كان طبعه .

فهذه القوى الثلاث إنما هى حصون حصن الله بها الإنسان ضد عدوه الشيطان .. فالعقل بإدراكه يميز بين الخير والشر ، والضمير بحساسيته يدفع إلى الخير ويزع عن الشر ، والإرادة بقوتها تفعل أو تترك حسبما يوجهها العقل والضمير ، وجميعها قوى خيرة ، لأنها أثر من آثار النفخة الروحية التى كرم الله بها الإنسان . ولا شك أنها أسلحة قوية يستطيع الإنسان بها أن يتحكم فى غرائزه ، ويرسم لها النهج الذى تسير عليه ، حتى تؤدى وظائفها على خير وجه ، كما أنها أجنحة قوية يستطيع بها أن يحلق فى جو السماء .. ولا نقصد بالسماء تلك الكواكب والنجوم ، ولا ذلك اللون الأزرق الذى يعلو رءوسنا ، إنما نقصد بالسماء كل أفق من آفاق السمو إلى المثل الأعلى ، وكل معنى كريم من معانى الخير ، وكل خلق عظيم يسبغ على الفرد والجماعة روح السعادة ، من

الصدق والوفاء ، والعدل والأمانة ، والمحبة والإخلاص ، والمروءة والشجاعة ، والتضحية والإيثار ، والرحمة والحنان ، والعفو والإحسان ، إلى غير ذلك من كل معنى فاضل تستريح إليه النفس ، ويطمئن إليه الضمير.

هكذا برأ الله الإنسان ، فلم يجعل حياته مادية صرفة كحياة الحيوان ، ولا روحية صرفة كحياة الملائكة ، بل جعلها مزيجاً من المادة والروح ، ليتلاءم وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التى يحيا عليها جسمه ، ومن ناحيته الروحية مع طبيعة السماء التى تهفو إليها روحه . « فكان له إلى جانب بشريته ناحية روحية ، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة ، وتجعل له فى طبيعته مصدرًا لإلهام الخير وصفات الكمال » .

ولما كانت الخلافة ميدانها الأرض . فقد سخر الله للإنسان كل ما فيها ، وكل ما يحيط بها من السموات ، ومن الشمس والقمر ، والكواكب والنجوم ، والرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض . ليستخدم مواهبه فى اكتشاف أسرارها ، واستخراج كنوزها ، واستغلال خيراتها ، ويعيش فيها سيدًا كريمًا ، يقيم الحق والعدل فى أرجائها ، وينشر الخير والسلام فى نواحيها ، ويقمع البغى والعدوان والظلم ، ويؤدى عن الله فيها كل ما يريد لعباده من أمن وطمأنينة وسلام ..

(الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار* . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[١٤]) .

---

* آدم : للأستاذ البهى الخولى .

(١٤) سورة إبراهيم : ٣٢ ، ٣٤ .

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة [١٥]) .

فالله عز وجل لم يترك الإنسان هملا ، ولم يهبط به إلى الأرض وهو أعزل ، بل سلحه بكل قوى الخير ، كما سلح عدوه الشيطان بكل قوى الشر ، وبين له سنن الكائنات التى تحكمها ، وتضبط خيرها وشرها ، وتنظم نفعها وضرها ، وبث فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطرى ما يكشف به تلك النواميس والسنن .. وجعل له من مواهبه قوى تناسب طبيعة العمل الأرضى البحت ، وأخرى ذات روح إلهية لا تمت إلى الأرض بصلة ، ولا تستمد منطقها من عالم الأرض . وإنما تستمده من نور الله وفضله ، وسبحانه .. فليس فى مواهب المرء شىء يزيد مثقال ذرة أو ينقص من مقتضيات الوفاء بحقوق الخلافة التى أعده الله لها وكرمه بها . فإن هو أدى الذى عليه ونهض بحق ما ألقى إليه ، فقد أنصف نفسه ، وكان عندما أراد الله له من كرامة ، وإن أرادها ملهاة ومأكلة وشهوة . وعطل بعض مواهبه دون بعض ، فقد غير خلق الله فيه . وانسلخ مما أراد الله له من الكرامة والخير*. وكان كما يقول سبحانه : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) [١٦] .

بكل هذه المواهب والقوى أمد الله الإنسان ، وأعده ليكون أكمل الخلائق

---

(١٥) سورة لقمان : ٢٠ .

* آدم ، بشىء من التصرف .

(١٦) سورة الأعراف : ١٧٥ - ١٧٧ .

نشأة ، وأرفعها قدرًا ، وأهداها سبيلا . فما على الإنسان - وقد أمد بكل ذلك - إلا أن يلائم بين مواهبه ويوائم بين قواه . حتى يسير بها فى الطريق السوى ، وإلا أن يراعى سنن الله فى الكائنات ، حتى يحقق بها الخير والنفع لنفسه ولمن حوله ، فإن الله تبارك وتعالى إنما خلق الأشياء كلها لخير الإنسان ونفعه ، ولكنه لم يخلق شيئًا بحيث يكون نفعًا محضًا ولا بحيث يكون ضررًا محضًا ، بل أودعها جميعًا قابليتها للنفع والضرر ، وجعل لكل شىء قدرًا يتحقق به نفعه وينتفى به ضرره .. فإذا استعمل الشىء فيما خلق من أجله وبالقدر الذى حدد له كان خيرًا ونعمة ، وإن أسىء استعماله أو تجوز به مقداره كان شرًّا ونقمة . «وأبداً تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة ، وإنما تفسدها يد الإنسان») .

وهكذا تجرى القاعدة مطردة كما بينها القرآن الكريم : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك[١٧]) (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها[١٨]) .

وليس من شك فى أن الإنسان إذا لاءم بين مواهبه وقواه ، فسيطر بعقله وإرادته وضميره على غرائز الجسم ، وراعى سنن الله فى استخدام الأشياء ، فلن يكون للشيطان عليه من سلطان ، ولكن الشيطان كثيرًا ما يغرر به ويستهويه ، وكثيرًا ما يستدرجه ويستنزله حتى يفسد عليه ذوقه ورأيه وتقديره ، ويزين له سوء عمله فيراه حسنًا .. وإنما يأتى الشيطان غريمه من طريق غرائزه ، فلا يزال يثيرها ويستفزها ويهدهدها حتى تكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته ،

* العقل المؤمن : للأستاذ عبد المنعم خلاف .

(١٧) سورة النساء . ٧٩ .

(١٨) سورة يونس : ١٠٨

فيندفع معها اندفاع الحيوان . ذلك أن غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوهاها ، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزلة ، شأنها فى ذلك شأن الغرائز فى كل حيوان يدب على الأرض : « أما خصائصه الروحية فلا قبل للشيطان بها ولا سلطان له عليها ، لأنها سر الله ، عز وجل ، فى ابن آدم ، وحصنه الذى حصنه به وآواه إليه . ولا يزال المرء فى قوة ومنعة ما استعز بهذا السر واحتمى بهذا الحصن ، فإذا غفل أو تهاون فى الركون إليه كان كمن ألقى سلاحه واستسلم لعدوه ، فكان أهون شىء على الشيطان أن يغويه ، لأنه حين ذاك لايكون إلا فى حماية غرائزه . وهى أضعف نواحيه تماسكًا وأكثرها تهالكًا وانهيارًا » .

وقديمًا أتى الشيطان آدم وحواء من قبل الغريزة ، فعمد إلى غريزة « حب التملك » . وإلى غريزة « حب البقاء » . فاستثارهما فى نفسيهما ، وقال : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين[19] أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين[20]) .. وهكذا لم يستطع الشيطان أن يخدع آدم وحواء إلا من طريق الغرائز ، فلما تنبهت فيهما

---

(١٩) ملكين (بفتح اللام) هى القراءة المشهورة ، أى أن تكونا من الملائكة . وهناك قراءة أخرى بكسر اللام ، من الملك وهو الحكم والسلطان ، كقوله تعالى حكايته عن الشيطان (قال : يا آدم . هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟

(٢٠) سورة الأعراف : ٢٠ – ٢٤ .

خصائصهما الروحية أدركهما الندم والألم ، فسارعا بالتوبة والرجوع إلى الله ، عز وجل .

ولقد كانت هذه الخصائص كافية وحدها لعصمة الإنسان من غواية الشيطان ، لو أنه اعتصم بها واعتمد عليها فى مقاومة عدوه ، ولكن الشيطان محتال خبيث ، « يجرى من ابن آدم مجرى الدم » ، ويتسرب إليه من كل مدخل خفى ، حتى يلبس عليه أمره ، ويعمى عليه وجه الصواب ، فلا يرى الحق حقّا ولا الباطل باطلا . والله عز وجل ، يريد للإنسان أن يكون أهلا لما خصه به من الكرامة ويريد له ألا يضل فى متاهات البهيمية الحمقاء بعد ما ميزه بكل تلك الخصائص ، ويريد له أن يؤدى حق الخلافة التى هيأه لها ، وأعده لاحتمال تبعاتها ، وهى أمر ليس بالهين ، لأنها خلافة عن الله الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل .. والله يريد لخليفته أن يتخلق بأخلاقه ، وأن يتبين الحق واضحًا فى كل شىء حتى لا يزله الشيطان عنه . من أجل ذلك تعهده ، عز وجل ، بالتربية منذ كان ، كما يتعهد الوالد ولده العزيز ، حتى ينشئه على أحسن ما يريد له من طباع الخير وكريم الخصال ، (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا[٢١]) .

نعم ، فقد جعل سبحانه يوصى الإنسان منذ نشأته أن يحرص على ما حصنه به من القوى ، وعلى ما رفعه إليه من المنزلة ، وظل فى كل مناسبة يحذره من الشيطان أن يغلبه على مواهبه أو يخدعه عن منزلته ، كما يحذر الوالد ولده من

---

(٢١) سورة النساء : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

قرين السوء ، ولم يدع فرصة تمر دون أن يكرر له النصيحة ويعيد عليه الوصية ..

حذر منه آدم أبا البشر وهو لا يزال فى الجنة ، قال : (يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى[٢٢]) وحذره منه بعد أن هبط به إلى الأرض ، (قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .. وحذر منه بنى آدم ، ذكرهم بما كان من خداعه لأبويهم حتى أخرجهما مما كانا فيه ، فقال عز وجل : (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة[٢٣] .. (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير[٢٤]) .

ولم يزل سبحانه يتعهد بنى آدم بالتحذير من غواية الشيطان ، ويتخولهم بالنصح والإرشاد من حين إلى حين ، ويرسل إليهم رسله وأنبياءه ، أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل ، ومعهم الكتب والشرائع ، ليبينوا لهم طريق الحق ويهدوهم سواء السبيل ، وليضربوا لهم المثل بسلوكهم على أن الإنسان يستطيع بما وهبه الله من القوى أن يغالب الشيطان ، وأن يقيم خلافة الله فى الأرض على خير وجه ، وأن يحقق فيها كل ما يريد الله من معانى الحق .

فلم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله ، بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية فى تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم ، وأن

---

(٢٢) سورة طه : ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٢٤) سورة فاطر : ٦ .

يكونوا قدوة للناس فى حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق ، وفى مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط . ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشرًا لا ملائكة ، فيهم من الغرائز والمواهب ما فى سائر الناس ، ولكنهم كانوا حكماء فى استخدامها ، فلم يقتلوا غرائزهم ولم يميتوا شهواتهم ، بل حكموا فيها عقولهم وضمائرهم ، فضبطوها وسيطروا عليها ، وساروا بها على وفق ما أراد الله منها ، ونهجوا بها المنهج الذى بلغ بهم غاية الكمال الروحى ، كما بلغ بهم غاية الكمال الجسمانى ، فوضعوا أنفسهم بذلك فى المنزلة الكريمة ، وكانوا بما أوتوا من الحكمة خير النماذج للإنسانية الكاملة . (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولو الألباب[٢٥]) .

وإذا كان « المثل الأعلى - كما يقولون - هو جماع المحاسن والكمالات التى تكون عادة فى مختلف الأفراد ، مجردة من شوائب النقص ، بحيث يتكون منها مثال كامل للجنس » ... فقد كان الرسل والأنبياء مثلا عليا للجنس البشرى ، ونماذج كاملة ، فى كل زمان ومكان أرسلوا فيه ، وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس - بأقوالهم وأفعالهم - كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى فى إسعاد الخليقة . وكيف يغالبون قوى الشر التى تريد أن تفسد الحياة فى الأرض .

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط[٢٦]) .. (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيمًا[٢٧])

وقد كان كل نبى من أنبياء الله مثلا أعلى ، وكان قدوة حسنة للذين أرسل

---

(٢٥) سورة البقرة : ٢٦٩ .

(٢٦) سورة الحديد : ٢٥ .

(٢٧) سورة النساء : ١٦٥ .

إليهم ، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده لو عرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل ، وأتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التى كان يتحلى بها ، ولكن أصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجلوا إلا القليل من أقوالهم ، ولم تتح لبعضهم الفرص الكافية لإظهار فضائلهم وأخلاقهم وأفعالهم ، كما أن الزمان ذهب بآثار الكثير منهم ، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته ، ولا شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها ..

أما محمد ﷺ فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التى وضحت كل معالمها . والتى سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها ، فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها .. فهو النبى الوحيد الذى يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، إذ إن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره ، وسجل حياته كامل غير منقوص ، وسننه القولية والفعلية يتمم بعضها بعضًا ، وكأن كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية قد قدر له وعمل حسابه . فكل ما يعرض للإنسان مما دق أو جل يتجلى فى مرآة حياته . وهو النبى الوحيد الذى مارس بالفعل كل المبادئ التى كان يلقنها للناس ، ولن تجد فى القرآن حكمًا أو أمرًا لم يعمل به النبى محمد ..

« وإذا كان القرآن الكريم يفصل لنا الأخلاق على اختلاف أنواعها ، فإن حياة النبى محمد تصورها لنا بألوانها الحقيقية . وقد تقلب ﷺ – من لدن كان يتيمًا إلى أن صار ملكا[٢٨] فى جميع مراحل الحياة ، فمارس صروفها ووفى بحقوق المراتب كلها ، وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة . فقد كان طفلا

---

(٢٨) لم يكن رسول الله « ملكا » بالمعنى المتعارف من كلمة « ملك » وإنما المقصود أنه ﷺ بلغ من سعة الملك وقوة السلطان ما يبلغه الملوك .

وشابًا وشيخاً . وولدًا وأخا وزوجًا . وتاجرًا وملكا وقاضيًا ، ورجلا فى السراء والضراء .. وكان فى كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية . وكان مثال « الإنسان الكامل » ثابتًا على العهد لم يتغير طبعه ولا خلقه ، ولا اختلفت معاملته للناس ، ولا تغير أسلوب معيشته . فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعفو والشهامة والمروءة ، فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات والثبات عند الملمات ، والثقة فى خالق الأرض والسماوات * » .

وصدق الله العظيم إذ يقول : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا[٢٩]) .

---

* المثل الأعلى للأنبياء .

(٢٩) سورة الأحزاب : ٢١ .

خاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، الحمد لله الذى يسر علينا عسير الجهد وأمدنا بالعون والتوفيق ، والعرفان والشكر للسادة المشايخ والعلماء والكتاب والأطباء الذين ندين لهم بمادة هذا الكتاب الذى أتاح لنا التعلم والانتفاع من هذه المراجع القيمة والبحوث النادرة .

والأمل والرجاء أن يكون ما بذلناه من الجهد فى الجمع والتصنيف والتخريج والتلخيص وإعادة الصياغة والترتيب قد عاد على القارئ بالفائدة التى نرجوها له .

والله نسأل أن يكون كتابنا التالى أكثر فائدة وأجل نفعًا .. ففيه نعرض للروح ما هو؟ وصلة الروح بالنفس والعقل .. وفكرة الروح عند الإنسان البدائى – وعند الفراعنة – والبراهمة والهندوس والإغريق وفى الديانات السماوية الثلاثة وعند بوذا وكونفوشيوس وفى الفكر العربى والإسلامى بصفة عامة .. ومراتب تعلقها بالبدن – ودلائل حدوثها وهل سبقت البدن أو لحقت به فى الخلق – وحالتها بعد مفارقتها للبدن . ويمتد الحديث إلى الحياة بعد الموت والاتصال بين أرواح الأحياء والأموات والكلام عن تحضير الأرواح والتناسخ والسحر والكهانة والعرافة والرؤيا وعلم اليازرجة وعلم حساب الحروف .. وغير ذلك مما له اتصال بموضوع الروح . كل ذلك فى إطار دراسة شاملة واعية شائقة العرض .

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والهداية .

المؤلفان

المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقى
٣ - تفسير الطبرى
٤ - تفسير ابن كثير
٥ - تفسير الفخر الرازى
٦ - تفسير الخازن
٧ - تفسير الكشاف
٨ - تفسير القرطبى
٩ - تفسير جزء عم : للإمام محمد عبده
١٠ - تفسير سورة العلق : م. جمال الدين عياد
١١ - صحيح البخارى ومسلم
١٢ - مختصر صحيح مسلم : تحقيق ناصر الدين الألبانى
١٣ - فتح البارى فى شرح صحيح البخارى
١٤ - عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى
١٥ - شرح صحيح البخارى للكرمانى
١٦ - مسند أبى بكر الصديق
١٧ - مسند الإمام أبى حنيفة
١٨ - مسند الإمام أحمد
١٩ - موطأ مالك

٢٠ – فيض القدير : لمحمد بن عبد الرءوف المناوى
٢١ – السيرة الحلبية الجزء الأول
٢٢– السيرة لابن هشام الجزء الأول
٢٣ – الروض الأنف : للسهيلى
٢٤ – نيل الأوطار : للشوكانى
٢٥ – الإتحافات الربانية بشرح الشمايل المحمدية : للترمذى
٢٦ – مقدمة ابن خلدون :(وبهامشه سراج الملوك للطرطوشى)
٢٧ – حياة محمد : د . محمد حسين هيكل
٢٨ – محمد رسول الله : د . عبد الحليم محمود
٢٩ – صور من حياة الرسول : أمين دويدار
٣٠ – الإنسان فى القرآن : عباس محمود العقاد
٣١ – المرأة فى القرآن : عباس محمود العقاد
٣٢ – موسوعة العلوم الإسلامية : للتهانوى
٣٣ – أم النبى : د . عائشة عبد الرحمن
٣٤ – الأوائل : أبى هلال العسكرى
٣٥ – محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر : علاء الدين على رده السكنوارى البسنوى
٣٦ – العقائد الإسلامية : الشيخ سيد سابق
٣٧ – الإسلام والعقل : د . عبد الحليم محمود
٣٨ – عجالة فى تاريخ الأديان : الشيخ محمد بن فتح الله بدران
٣٩ – الديانات القديمة : الشيخ محمد أبو زهرة
٤٠ – نفحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكى
٤١ – الأسرة فى التشريع الإسلامى : الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى

٤٢ - مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية : د . أحمد عبد القادر الجمال
٤٣ - عالم الجن والملائكة : عبد الرزاق نوفل
٤٤ - القوى الخفية : أنيس منصور
٤٥ - الطب للشعب : جماعة من الأطباء - دار الشعب
٤٦ - طبيبك الخاص : مجلة طبية مصرية
٤٧ - مجلة جمعية أمراض الشيخوخة : مجلة طبية أمريكية

كتب مترجمة ومراجع أجنبية

١ - القوى الطبيعية المجهولة : كاميل فلامريون
٢ - مقدمة تاريخ الحضارات الأولى : جوستاف لوبون
٣ - شجرة الحضارة : رالف لينتون
٤ - تكوين العقل الحديث : جون راندل
٥ - أصل الأنواع (النشوء والارتقاء : شارل دارون
٦ - القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم : موريس بوكاى
٧ - عجائب جسم الإنسان : انتونى رافاييلى

رقم الإيداع		١٩٨٨ / ٢٥١٠
الترقيم الدولى	١-٨-٢٤٠٨-٢-٠-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٣٧٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

فى أجزاء ثلاثة ، جمع المؤلفان كل ما ورد عن قصة بدء الخلق من الكائنات الكلية قبل آدم ، وكيف وجد الإنسان فى هذا العالم ، وما مراحل الخلق الأولى .

كما ناقشا نظرية دارون ، واقتصرا بعدئذ على ما ورد فى القرآن الكريم فيما يختص بذلك الإنسان وذريته وأساليب حياته المختلفة ، ورأى علماء الإسلام فى هذه الأساليب .

والكتاب بهذا مدخل عصرى لبحث مسألة الإنسان المؤمن فى حياتنا الحاضرة ، على ضوء من المبادئ الراسخة القويمة من المعتقدات ، وهو يفتح الطريق لمزيد من البحوث فى هذا المجال .